جمال الغيطانى

آمال حسن

مؤسسة دار الفرسان
للنشر والتوزيع
١٥ش ابراهيم خليل المطرية
ت : ٢٢٥١١١١٠ – موبايل : ٠١٢٢٩٨٧١٢٣٧

اسم الكتاب : جمال الغيطانى (رجال عشقوا مصر)
المؤلـــــــــف : آمال حسن
الناشـــــــــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فرى برنت- ٠١٠٤٤٧٠٦٤٥
رقم الإيداع : ٨٥٦٣
طبعة أولى : ٢٠١٦

فهرسة أثناء النشر

حسن ، آمال
جمال الغيطانى (رجال عشقوا مصر) /آمال حسن – القاهرة .- ط١:
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع ، ٢٠١٦
١٦٠ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك : ٤-٨١-٦١٦٩-٩٧٧-٩٧٨
١- الرجال – تراجم
أ- العنوان ٩٢٠,٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)

صدق الله العظيم
طه ١١٤

مُقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

خمسون عامًا من الإبداع رسم فيها الروائي الراحل جمال الغيطاني شخصيات تركها حيّة بين أيادي محبيه، متأثرًا خلالها بعمله كمراسل حربي على جبهة القتال بين مصر وإسرائيل، مقتحمًا عالم الأدب والرواية عبر مجلة "أخبار الأدب"، والتي باتت منذ صدور عددها الأول أهم وأقوى جريدة ثقافية في مصر والعالم العربي.

سجّلت المجموعة القصصية للراحل جمال الغيطاني "أوراق شاب عاش منذ ألف عام"، تاريخ بدايته في عالم الكتابة حتى اعتبرها "شهادة ميلاده ككاتب" وظل محتفظًا لنفسه بأسلوب خاص يميّزه عن منافسيه رغم علاقته القوية بالروائي العالمي نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم من أبناء مهنته، و أبى ألا يتأثر بغيره.

فقدت الاوساط الأدبية والثقافية الأديب الكبير جمال الغيطانى صاحب الموهبة المتميزة فى عالم الكتابة والتى تعرف من خلالها القراء على أحياء القاهرة وجمالياتها بطريقة لم يسبقه أحد إليها من قبل.

الغيطانى أشهر من تكلم عن القاهرة الفاطمية والاسلامية من خلال برنامج تلفزيونى شهير على احدى القنوات الفضائية ويعد هذا البرنامج بمثابة افلام وثائقية عن مساجد مصر التى لانعرفها كما أنه من أكثر الروائيين الذين تم ترجمة أعمالهم إلى لغات أجنبية وحصل على العديد من الجوائز من مصر وخارجها ومنها جائزة الدولة التقديرية وجائزة النيل،

جائزة سلطان العويس، وسام العلوم والفنون من الطبقة الاولى وغيرها. وهو الروائى صاحب الرؤية المتحررة ظل متمسكا بها حتى الرمق الأخير من حياته وقد ظلت مصر فى قلب الغيطانى وعقله حتى النهاية، ويؤمن الغيطانى بأن الجيش هو العمود الفقرى للحضارة المصرية فهو لديه مؤسسة حضارية وليست عسكرية فقط لانه تراث وطنى طويل جدا. وأصدق ما يطلق على الغيطانى أنه هو المواطن المصرى المعجون بكل ذرة من تراب وطنه لانه لايرى سواه وحب الوطن يجرى فى عروقه مجرى الدم، فهو الصعيدى القادم من سوهاج وهو الشعبى الذى عاش بحى الجمالية بالحسين فى حارة الطبلاوى وظل طوال حياته يرفض القهر السياسى والاجتماعى وعندما كتب الغيطانى عن المعابد القديمة وحوائط المساجد العريقة وجمالياتها ومآذنها وقراءة القرآن الكريم بها..تحدث عن حلاوة المقدس وتجلياته فى النص، ورغم ذلك فإن الغيطانى عشق كتب المتصوفة الروحية العميقة، واذا أردنا أن نصفه فى كلمات فهو صاحب العبارة الجميلة وصديق المكان والجدران والنخل والنجمة والحجر واشعار التصوف وحى الحسين والتجليات ووقائع الزمان. لانقول وداعا بل إلى لقاء قريب باذن الله.

من هو جمال الغيطانى ؟

جمـــال أحمـــد الغيطـــاني علـــي ولـــد ٩مـــايو ١٩٤٥ - ١٨ أكتوبر ٢٠١٥ روائي وصحفي مصري ورئـــيس تحريـــر صـــحيفة أخبـــار الأدب المصرية. صاحب مشروع روائي فريد استلهم فيه التراث المـــصري ليخلق عالمًا روائيًا عجيبًا يعد اليوم من أكثر التجارب الروائية نضجًا وقـــد لعب تأثره بصديقه وأستاذه الكاتب نجيب محفوظ دورا أساسيًا لبلوغه هذه المرحلة مع اطلاعه الموسوعي على الأدب القديم وساهم في إحياء الكثير من النصوص العربية المنسية وإعادة اكتشاف الأدب العربي القديم بنظـــرة معاصرة جادة.

انفتحت تجربته الفنية في السنوات الأخيرة على العمل التلفزيوني مع المحافظة على نفس الملامح التي نجدها في الرواية ،إذ كشف النقاب عن عالم آخر يعيش بيننا من المعمار والناس. يعتبر الغيطاني من أكثر الكتاب العرب شهرة على شبكة الانترنت إذ أن أغلب رواياته ومجموعاته القصصية متوفرة في نسخات رقمية يسهل تبادلها أضافت بعدا جديدا لهذا الكاتب الذي جمع بين الأصالة العميقة والحداثة الواعية.

نشأته

ولد جمال الغيطاني في ٩مايو١٩٤٥ ، في قرية جهينة محافظة جرجا(محافظة سوهاج حالياً). نشأ في القاهرة القديمة، حيث عاشت الأسرة في منطقة الجمالية، وأمضى فيها ثلاثين عاما. تلقى تعليمه في مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية، ومدرسة الجمالية الابتدائية .تلقى

تعليمه الإعدادي في مدرسة محمد علي الإعدادية .بعد الشهادة الإعدادية التي حصل عليها عام ١٩٥٩، التحق بمدرسة العباسية الثانوية الفنية التي درس بها ثلاث سنوات فن تصميم السجاد الشرقي وصباغة الألوان.

تخرج عام ١٩٦٢، وعمل في المؤسسة العامة للتعاون الإنتاجي رساما للسجاد الشرقي، ومفتشا على مصانع السجاد الصغيرة في قرى مصر، أتاح له ذلك زيارة معظم أنحاء ومقاطعات مصر في الوجهين القبلي والبحري.

تزوج عام ١٩٧٥، من ماجدة الجندي، رئيس تحرير مجلة علاء الدين، للأطفال الصادرة عن مؤسسة الأهرام، وهو أب لـ محمد وماجدة.

عمله واعتقاله

في عام ١٩٦٣ استطاع الغيطاني أن يعمل كرسام في المؤسسة المصرية العامة للتعاون الإنتاجي حيث استمر بالعمل مع المؤسسة إلى عام ١٩٦٥.

تم اعتقاله في أكتوبر ١٩٦٦ بتهمة الانتماء الى تنظيم ماركسي سري، وأمضى ستة شهور في المعتقل تعرض خلالها للتعذيب والحبس الإنفرادي. وأطلق سراحه في مارس ١٩٦٧ .عمل سكرتيرا للجمعية التعاونية المصرية لصناع وفناني خان الخليلي وذلك إلى عام ١٩٦٩، وأتاح له ذلك معايشة العمال والحرفيين الذين يعملون في الفنون التطبيقية الدقيقة.

بعد صدور كتابه الأول عرض عليه محمود أمين العالم المفكر الماركسي المعروف، والذي كان رئيسا لمؤسسة أخبار اليوم الصحفية أن يعمل معه فانتقل للعمل بالصحافة.

بعد أن عمل في الصحافة بدأ يتردد على جبهة القتال بين مصر واسرائيل بعد احتلال إسرائيل لسيناء، وكتب عدة تحقيقات صحفية تقرر بعدها تفرغه للعمل كمحرر عسكري لجريدة الأخبار اليومية واسعة الانتشار، وشغل هذا التخصص حتى عام ١٩٧٦ .شهد خلالها حرب الاستنزاف ١٩٦٩ – ١٩٧٠ على الجبهة المصرية، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ على الجبهتين المصرية والسورية. ثم زار فيما بعد بعض مناطق الصحراء في الشرق الأوسط، مثل شمال العراق عام ١٩٧٥، ولبنان ١٩٨٠، والجبهة العراقية خلال الحرب مع إيران (عام ١٩٨٠-١٩٨٨).

وفي عام ١٩٧٤ إنتقل للعمل في قسم التحقيقات الصحفية، وبعد احدى عشر عاما في ١٩٨٥ تمت ترقيته ليصبح رئيسا للقسم الأدبي بأخبار اليوم.

ثم رئيسا لتحرير (كتاب اليوم) السلسلة الشهرية الشعبية ثم رئيسا لتحرير أخبار الأدب مع صدورها عام ١٩٩٣.

يشغل جمال الغيطاني منصب رئيس تحرير جريدة أخبار الأدب منذ ١٩٩٣ حتى وفاته في ٢٠١٥.

أحداث الإمبراطور

وهي عبارة عن مجموعة إتهامات تم توجيهها إلى الغيطاني وذلك بعد نشر موقع إلكتروني دانماركي يدعى الإمبراطور وتنسب إدارته إلى الشاعر العراقي أسعد الجبوري، حيث تم أتهامه بأنه الكاتب الحقيقي لرواية زبيبة والملك المنسوبة لصدام حسين .كما تم نشر تلميحات إلى أن عدي طلب منه كتابة قصة له أيضا. ما دعم تلك الأقوال هو كتاب حراس البوابة الشرقية والذي أصدره الغيطاني عام ١٩٧٥ في بغداد .وهو أيضا المسمى الذي أطلق على الجيش العراقي لاحقا أثناء الحرب العراقية الإيرانية.

قدمت الكثير من الجهات الأدبية إحتجاجها على مثل هذه التهم و أعتبروها محاولة لأسكات الغيطاني بعد كتابته بعض مقالات تنتقد التدخل الأمريكي في العراق، بينما أكدت مجموعة أخرى حدوث هذا الأمر.

بالنسبة للغيطاني فقد حول الموضوع لمحاميه ليتولى متابعة الأمر من ناحية قانونية و جنائية.

قضية "زبيبة والملك"

تعرض جمال الغيطاني لاتهامات بأنه الكاتب الحقيقي لرواية زبيبة والملك، التي لمح صدام حسين بأنه كاتبها. وقد بادر جمال الغيطاني فكذب الخبر، جملة وتفصيلا.

لكن الأمور لم تقف عند هذه النقطة. فقد أثيرت زوبعة ثقافية ونشر بعض الأدباء العرب بيانا تضامنيا مع الغيطاني. وكتبت وزيرة الثقافة

السورية السابقة د .نجاح العطار، رسالة للغيطاني قالت فيها " لم اصدق ان يجرؤ أحد على توجيه مثل هذه التهمة التي وجهوها إليك."

وأصدر اتحاد الكتاب الفلسطينيين، هو الآخر، بيانا حمل عنوان " ارفعوا أيديكم عن الروائي جمال الغيطاني "، وجاء فيه ما يلي : " يتابع الكتاب الفلسطينيون بقلق بالغ الحملات المسعورة لأجهزة الأعلام الإمبريالية والاستعمارية والصهيونية التي ترافق العدوان البشع الذي يتعرض له شعبنا في العراق الشقيق والنيات المبيتة للنيل من استقلال الأقطار العربية في أجواء صراع الحضارات. وان ما يتعرض له الروائي جمال الغيطاني ألان من اتهمات حول كتابته لرواية زبيبة والملك، هو جانب من جوانب العدوان على واحدة من أهم القيم الإنسانية وهي حرية الرأي وحرية التعبير . وان محاولة اغتيالهما انما هو اغتيال للثقافة العربية التي هي المركز الأساس في حضارة الآمة ومستقبل وجودها."

المتاعب الصحية والوفاة

أجرى الغيطاني جراحة لتغيير شريانين بالقلب عام ١٩٩٦. وفي يوليو ٢٠٠٧ خضع لجراحة قلب مفتوح بمستشفى كلـيڤلاند بالولايات المتحدة لتغيير الصمامين الأورطي والميترالي فضلاً عن تغيرال شريانين اللذين استبدها من قبل في ١٩٩٦ .

في ١٨أكتوبر ٢٠١٥ توفى الغيطاني في مستشفى الجلاء بالقاهرة بعد تدهور حالته الصحية .

إنتاجه الأدبي

كتب أول قصة قصيرة عام ١٩٥٩ .نشر أول قصة يوليو ١٩٦٣. وعنوانها) زيارة (في مجلة الأديب اللبنانية. وفي نفس الشهر نشر مقالا في مجلة الأدب التي كان يحررها الشيخ أمين الخولي، وكان المقال حول كتاب مترجم عن القصة السيكولوجية.

كتب ثلاث روايات في الفترة من ١٩٦٣ و١٩٦٨.

- رحيل الخريف الدامي لم تنشر
- محكمة الأيام فقد المخطوط أثناء اعتقاله عام ١٩٦٦
- اعتقال المغيب – فقد المخطوط أثناء اعتقاله عام ١٩٦٦
- الزيني بركات

صدر أول كتاب له عام ١٩٦٩، "أوراق شاب عاش منذ ألف عام" صدر متضمنا لخمس قصص قصيرة كتبت كلها بعد هزيمة الجيش المصري في سيناء عام ١٩٦٧. لاقى الكتاب ترحيبا واسعا من القراء والنقاد.

منذ يوليو ١٩٦٣ وحتى فبراير ١٩٦٩ نشر عشرات القصص القصيرة نشرت في الصحف والمجلات المصرية والعربية، كما نشر قصتين طويلتين، الأولى بعنوان "حكايات موظف كبير جدا". نشرت في جريدة المحرر اللبنانية عام ١٩٦٤، والثانية "حكايات موظف صغير جدا". نشرت في مجلة "الجمهور الجديد" عام ١٩٦٥.

في فترة ما قبل الصحافة من عام ١٩٦٣، حين نشر أول قصة قصيرة له، إلى عام ١٩٦٩، قام بنشر ما يقدر بخمسين قصة قصيرة، إلا أنه من

ناحية عملية بدأ الكتابة مبكرا، إذ كتب أول قصة عام ١٩٥٩، بعنوان نهاية السكير.

بدأ النقاد بملاحظته في مارس ١٩٦٩، عندما أصدر كتابه أوراق شاب عاش منذ ألف عام و الذي ضم خمس قصص قصيرة، واعتبرها بعض النقاد بداية مرحلة مختلفة للقصة المصرية القصيرة.

من مؤلفاته

- حراس البوابة الشرقية
- متون الأهرام
- شطح المدينة
- منتهى الطلب إلى تراث العرب
- خلسات الكرى
- سفر البنيان
- حكايات المؤسسة
- التجليات) ثلاثة أجزاء(
- دنا فتدلى
- رشحات الحمراء
- نوافذ النوافذ
- نثار المحو

- مطربة الغروب
- وقائع حارة الزعفراني
- الرفاعي
- أوراق شاب عاش منذ ألف عام
- رسالة في الصبابة والوجد
- الخطوط الفاصلة) يوميات القلب المفتوح(
- أسفار المشتاق
- نجيب محفوظ يتذكر
- مصطفى أمين يتذكر
- المجلس المحفوظية
- رسالة البصائر في المصائر
- أرض.. أرض.
- الزويل.
- الزيني بركات.
- وقائع حارة الزعفراني.
- الحصار من ثلاث جهات.
- حكايات الغريب.

- ذكر ما جرى.
- الرفاعي.
- خطط الغيطاني.
- كتاب التجليات (السفر الأول(.
- كتاب التجليات (السفر الثاني(.
- كتاب التجليات (السفر الثالث(.
- كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة.
- إتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان.
- رسالة في الصبابة والوجد.
- رسالة البصائر في المصائر.
- شطح المدينة.
- هاتف المغيب.
- ثمار الوقت.
- أسفار المشتاق.
- منتصف ليل الغربة.
- أحراش المدينة.
- المصريون والحرب من صدمة يونيو إلي يقظة أكتوبر.

- حراس البوابة الشرقية) .الجيش العراقي في حرب أكتوبر.(
- نجيب محفوظ يتذكر.
- مصطفي أمين يتذكر .
- ملامح القاهرة في ألف عام.
- أسبلة القاهرة.
- مقامات بديع الزمان الهمذاني.
- شطف النار.
- مختارات أبي حيان.
- توفيق الحكيم يتذكر.
- مطربة الغروب.
- سفر البُنيان.
- حكايات المؤسسة.
- الخطوط الفاصلة.
- دفاتر التدوين، مشروع سردي
- خلسات الكري(١٩٩٦)
- دنا فتدلي
- رشحات الحمراء.

- نوافذ النوافذ.
- نثار المحو.
- رن
- متون الأهرام.
- حكاية الخبيئة.
- يومياتي المعلنة.
- المجالس المحفوظية.
- يوميات الحصر.
- قصص
- أوصاف.
- نفس.
- سوزى.
- قصص البدايات – البيرق.
- قصص البدايات – بكاء الحزين في مشهد الحسين.

كتبه المترجمة

ترجم العديد من مؤلفاته إلى أكثر من لغة منها:

إلى الألمانية

- الزيني بركات عام ١٩٨٨
- وقائع حارة الزعفراني عام ١٩٩١
- رواية رسالة البصائر والمصائر عام ٢٠٠١

إلى الفرنسية

- الزيني بركات عام ١٩٨٥
- رسالة البصائر والمصائر عام ١٩٨٩
- وقائع حارة الزعفراني عام ١٩٩٦
- شطح المدينه عام ١٩٩٩
- متون الأهرام عام ٢٠٠٠
- حكايات المؤسسة عام ٢٠٠٢
- رواية التجليات بأجزائها الثلاثة في مجلد واحد عام ٢٠٠٥

مقالاته

- عبور عن المغتربين، جريدة الأخبار، ٦يونيو ٢٠١١.
- محمد البساطي، جريدة الأخبار، ٢٨ يونيو ٢٠١١.
- أول دبابات عبرت القناة، كتاب الهلال الذهبي، ١٩٧٦.

جوائز

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠.

- جائزة سلطان العويس، عام ١٩٩٧.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.
- وسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس، Chevalier de l'Ordre des Arts et des Lettres عام ١٩٨٧.
- جائزة لورباتليون Prix Laure-Bataillon,لأفضل عمل أدبي مترجم إلى الفرنسية عن روايته التجليات مشاركة مع المترجم خالد عثمان ١٩نوفمبر ٢٠٠٥
- جائزة جرينزانا كافور للأدب الاجنبى - ايطاليا ، ٢٠٠٦.
- جائزة الدولة التقديرية (مصر(عام ٢٠٠٧.
- جائزة معهد العالم العربي ، باريس ، قصة نثار المحو ، ٢٠٠٩.

جمال الغيطانى وصحافة الحرب

بعد أن عمل جمال الغيطانى في الصحافة بدأ يتردد على جبهة القتال بين مصر واسرائيل بعد احتلال إسرائيل لسيناء، وكتب عدة تحقيقات صحفية تقرر بعدها تفرغه للعمل كمحرر عسكري لجريدة الأخبار اليومية واسعة الانتشار، وشغل هذا التخصص حتى عام ١٩٧٦ شهد خلالها حرب الاستنزاف ١٩٦٩ - ١٩٧٠ على الجبهة المصرية، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ على الجبهتين المصرية والسورية

ربما للمرة الأولى، تمر بنا ذكرى انتصارات أكتوبر المجيدة، ولا يكون جمال الغيطانى قادراً على الكلام.. سواء المكتوب منه أو المنطوق.. الغيطانى الآن ليس بقادر على كتابة الرواية أو القصة القصيرة أو المقال أو العمود الصحفى، فى الصفحة الأخيرة من صحيفة «الأخبار»، زاويته المشهورة «عبور» معلق فوقها منذ أسابيع اعتذار رسمى من الكاتب عن عدم الكتابة، على أن يواصلها لاحقاً.. وآه من «لاحقاً» هذه، نستعجلها، وندعو الله أن تأتى سريعاً.. كذلك إذا اتصلت بالغيطانى على هاتفه المحمول فلن يرد عليك، ولن يوافيك صوته الذى يجمع بين لكنة أولاد البلد من حى «الجمالية» وأسلوب المثقفين فى الحكى.. ليحكى لك هذا الصوت طائفة من ذكريات صاحبه الجليل عن حرب أكتوبر الجليلة، لعلك معنا الآن فى ذكرى حرب أكتوبر، بخيالك الذى نثق بأنه لا تقهره غيبوبة ولا يحجبه عصيان الجسد البشرى..!

لعل أفكار «جمال الغيطانى» تتجه الآن إلى «الرفاعى».. والرفاعى ليس صاحب الجامع الشهير الملاحق لجامع السلطان حسن فى مواجهة القلعة، ولكنه (صاحب مقام رفيع).. فى العسكرية المصرية.. «الرفاعى» عمل تندمج فيه قدرات جمال الغيطانى على الحكى الروائى، وموهبته الفذة كمراسل عسكرى أمضى على جبهة القتال سنوات.. وهو لم يشاهد البطولات العظيمة لضباط وجنود الجيش المصرى وحسب، وإنما عاشها بروحه وعقله، وسجلتها عيناه كما تسجل الكاميرا الحدث.. تخلده تخليداً.. «الرفاعى» – فى الأصل – تطلق على هذا الرجل الذى يتلاعب بالثعابين كيف شاء: فـ'ن شاء جعلها ترقص، وإن شاء جعلها تنام، وإن شاء قتلها.. وإن شاء طردها من البيت شر طردة.. الثعابين هنا إسرائيلية، تحتل أرض سيناء العزيزة، و»الرفاعى» ليس حاوياً، بل كان بطلاً عسكرياً من أرفع طراز، قيمة وطنية عالية الهامة.. هو العميد الشهيد «إبراهيم الرفاعى»، قائد المجموعة الخاصة (٣٩) – مخابرات حربية – التى كانت تتخذ شعار «رأس النمر»، وأحد أبرز أبطال القوات المسلحة المصرية، والذى قدم أدواراً فدائية شديدة الفاعلية فى الجبهة منذ تشكلت مجموعته (أغسطس ١٩٦٨) وحتى استشهاده فى حرب العبور المجيدة ١٩٧٣.

شغلت بطولات الرفاعى مخيلة جمال الغيطانى، انفعل بها.. وانفعل باستشهاده، فسجل صفحات من حياته فى هذا العمل الذى يجمع بين فنون الرواية والتحقيق الصحفى الميدانى والسيرة الذاتية، والفنون الثلاثة برع فيها الغيطانى.

«الرفاعى» كتبها الغيطانى فى أعام ١٩٧٦، وطبعت فى العام ١٩٧٨ طبعتها الأولى، ثم أعادت «دار الشروق» طباعتها للمرة الثانية فى ٢٠١١، ويستلفت النظر هنا.. تلك الطريقة شديدة الخصوصية فى الكتابة عند الغيطانى، التى أصبحت كالبصمة لا تتكرر، فباحثو التاريخ يجدون ضالتهم فى هذا الكتاب العظيم، الذى لا تجور فيه مقتضيات كتابة فن الرواية على مقتضيات الحقيقة التاريخية.. وعشاق فن ارواية يستمتعون أيما استمتاع بالحكى المستفيض الشيق للكاتب عن الشخصية، وهواة قراءة الصحف يجدون فيها التقرير الميدانى الذى يصور ساحات المعارك أدق تصوير.. كتب الغيطانى هذا العمل - ونشره - وهو ابن ٣٣ عاماً، ليصبح - بعد ذلك - من ألمع الكتاب فى هذا الباب الفريد.. الذى لا يزال مابين أيدينا منه قليلاً للغاية، باب (الأدب العسكرى)، إن جاز التعبير..!

تقرأ - مثلاً - فى هذا العمل الفذ «الرفاعى» لجمال الغيطانى تعبير «العد التنازلى للاستشهاد»، يؤمن الغيطانى، كما كان الشهيد العظيم «ابراهيم الرفاعى» يؤمن، بأن الشهيد - أى شهيد - يسير نحو النهاية المجيدة وهو على علم بها.. إنه ليس العلم المتعارف عليه، سواء العلم الذى فى الكتب، أو العلم الإخبارى - بمعى معرفة الخبر أو توقعه بالضرورة قبل حدوثه - إنه علم أقرب إلى «نفحات الصوفية»، أن يأتيك يقين بوقوع الشئ دون دليل على وقوعه، وأن تنتظره من دون أن يؤثر فى حياتك ومن دون أن تخبر به الآخرين، فإذا وقع.. تنام ملء جفونك عن شوارده ويسهر الخلق ويختصمون حوله.. نستعير هذا القول - بتصرف - من سيد الشعراء «أبى الطيب المتنبى»..!

العد التنازلى للإستشهاد.. هكذا تغلغل الغيطانى فى نفس «إبراهيم الرفاعى»، وقال فى إحدى فقرات كتابه الفريد عنه (١٣ يوماً بقيت على استشهاد الرفاعى)، هنا تقاس الحياة بعكس المنطق المعهود: من لايعرف نهايته يظنها بعيدة، ويظن مع ابتعاد نهايتها أن أمامه الكثير ليفعله، لكن الرفاعى شعر بأن أمامه القليل - جداً - من الوقت والكثير جداً لكى يفعله..!

ويرصد الغيطانى سمات الرفاعى كمقاتل فريد الطراز..!

الرفاعى دائماً يتجه إلى تسديد ضربة موجعة للعدو، ويوحد قدرات رجالة..!

الرفاعى يهاجم العدو، فى الوقت الذى لا يمكن للعدو أن يتوقع فيه هذا الهجوم، خصوصاً فى أوقات الليل.

الرفاعى كان إذا سقط أحد رجاله لا يدعه فريسة للعدو، أو لوحوش الصحراء، أو طعاماً للقرش فى مياه البحر.

الرفاعى - نصاً، وفق الغيطانى - كان (يكره المصادفة، التى تنوب عنه فى إنجاز عمل ما..)، بخلاف طبيعة أغلبية البشر..!

الرفاعى - لحظة الاشتباك - «تسبق طلقته كل الطلقات» كما قال جمال الغيطانى، فهو دائماً فى مقدمة رجاله البواسل.

الرفاعى - إلى جانب كل ذلك - لا يعترف بأساليب ثابتة فى القتال، بل لا يمكن للعدو أن يتوقع كيف سيهاجمه الرفاعى هذه المرة.

حياة الرفاعى كانت – كما كتب الغيطانى – حافلة بالمخاطر والصعاب التى كثيراً ما التقاها أمير الشهداء «الرفاعى» شامخاً، حتى ظهر فى كل لحظة صلباً متماسكاً أمام أعتى المواقف.. هذه الصلابة رصدها الغيطانى بعناية، صاغها كما صاغ الفنان العزبى قديماً «الفسيفساء» بصورة مدهشة، تجمع بين الدقة الهندسية الفائقة، وروح الفنان ورؤيته، صاغها كأن الرفاعى نفسه بعث من جديد ليسجل سيرته الذاتية بقلمه، بقلم فنان أديب..!

الرواية التى كتبها الغيطانى لم تفضل الجوانب الإنسانية لدى أمير الشهداء إبراهيم الرفاعى، من خلق رفيع ولمراعاته لكل من حوله كأب لأولاده، فضلاً عن رعايته لأسرته، بالتوازى مع دقة هذا العمل الروائى فى صبوغ استراتيجية الرفاعى قائداً.. وهى استراتيجية تأسست على علم عسكرى راسخ وشديد الحداثة أيضاً..!

ولو شئنا لكتبنا «المصور» كله عن هذا العمل الأدبى الفريد، الذى نرجو إعادة طباعته هذه الأيام، بسعر شعبى، لكى يصل إلى الشريحة المستهدفة منه، وهى الشباب، الذى يبحث عن قدوة أو عن مثال أو نموذج ملهم بكسر الهاء، الغيطانى يقدم لهم النموذج فى عمله الفذ عن «الرفاعى».. فى أنصع صورة..!

«حكايات الغريب» كذلك، واحد من الأعمال الأدبية الفذة لجمال الغيطانى، ربما يعرفه القارئ المصرى والعربى عبر هذا الفيلم الذى جسّر ذلك العمل الأدبى الفريد على الشاشة، وقد كان فيلم «حكايات الغريب» من

إنتاج (قطاع الإنتاج) بالتليفزيون المصرى، حين كان يرأسه السينمائى الفذ الراحل ممدوح الليثى، وهو نفس جهة الإنتاج التى قدمت ملحمة (رأفت الهجان) بأجزائها الثلاثة، والفيلم شديد الأهمية (ناصر٥٦) بعد ذلك بسنوات قليلة فى العام ١٩٩٦.

حكايات الغريب.. عرفها الجمهور المصرى والعربى فيلماً تليفزيونياً إذن، كان ذلك فى العام ١٩٩٢، جسد شخصية الغريب - أو «عبدالرحمن» - الفنان الكبير»محمود الجندى» ومعه محمد منير وشريف منير ونخبة من نجوم التسعينيات، وكتب له السيناريو والحوار محمد حلمى هلال وأخرجته إنعام محمد على.. الغريب - العمل الأدبى الذى أبدعه الغيطانى - يختلف فى تفاصيله بالطبع عن الفيلم لكن الخلاصة كما هيى: الغريب، هو «الإنسان المصرى»، الذى انكسر فى ١٩٦٧، وسلبت منه حبيبته وتزوجها لص أريب (مدير المجمع الاستهلاكى تاجر السوق السوداء)، واستشهدت ابنة شقيقته (أمل) فى مجزرة «بحر البقر» التى ارتكبها الصهاينة خلال حرب الاستنزاف، وظن الجميع بمن فى ذلك أمه، وشقيقته، وأقرب أصدقائه إليه.. أن «عبدالرحمن» الذى يعمل سائقاً لسيارة توزيع الصحف بأخبار اليوم قد انتهى وصار مسخاً بشرياً، لكنهم يفاجأون به يدخل السويس بسيارة التوزيع (التى تقوم بنقل المطبوعات الصحفية للمؤسسة بين القاهرة والمحافظات الأخرى..)، قد دخل السويس فى الليلة السابقة على فرض الصهاينة الحصار على المدينة الباسلة فى أواخر حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة، يختفى عبدالرحمن، ويبحث عنه كل أصدقائه، ليكتشفوا أن شخصيته اتحدت مع شخصيات جميع أبطال المقاومة الشعبية العظيمة فى

السويس آنذاك، وأن هذه الشخصية - التى يعرفها كل واحد من أهل السويس باسم مختلف - قد أصبحت رمزاً للمقاومة والشرف والبسالة والوطنية المشتعلة، لقد أشعل عبدالرحمن المقاومة فى وجه الإسرائيليين، وتحول إلى رمز.. وأصبح التفتيش عنه واجباً وطنياً، يقصد جمال الغيطانى بهذا ضرورة إحياء روح أكتوبر الملهمة مرة أخرى، فهى المفتاح الوحيد لخروج الوطن من أزماته..!

هذا المعنى هو نفسه الذى قدمه الغيطانى قبلها فى «الرفاعى»: إن الغيطانى يقدم الشخصية - سواء البطل العظيم «الرفاعى»، أو «عبدالرحمن» سائق سيارة توزيع أخبار اليوم فى تلك الفترة - يقدمها كقيمة، ظهرت فى كل مكان وزمان على الأرض المصرية، لا تبتعد كثيراً فى ظن كاتب هذه السطور عن الصفحات التى تحكى جزءاً من سيرة السلطان العظيم «طومان باى» الذى كان على رأس المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال العثمانى البغيض (١٥١٧) والتى سجلها الغيطانى فى رائعته ذائعة الصيت (الزينى بركات)..!

وللغيطانى كتاب ثالث - غير أدبى - عن حرب أكتوبر المجيدة، ذلك الكتاب يحمل عنوان «حراس البوابة الشرقية».

الكتاب صدر فى أول يناير ١٩٧٥، عن مكتبه (مدبولى)، فى ١٧٨ صفحة، وفى الحقيقة أنه ليس عن بطولات الجيش المصرى فى حرب ١٩٧٣، بل عن إسهام الجيش العراقى فى حرب أكتوبر.. (من خلال البشر الذين خاضوها)، ويهدف إلى (وصف العمليات التى خاضتها تلك القوات)

وفق تعبيرات الغيطانى ذاته فى هذا الكتاب، ونلاحظ أن مصطلح (حراس البوابة الشرقية) - عنوان هذا الكتاب - قد تم التوسع فى تداوله فى العراق بعد ذلك، وأطلقه الرئيس العراقى الراحل» صدام حسين» على الجيش العراقى، خلال حربه المجيدة التى انتصر فيها على جيش إيران، والتى انتهت فى ١٩٨٧.. لهذا الحد، اهتم العراقيون بكتاب الغيطانى (حراس البوابة الشرقية)، الذى رصد ليس فقط جانباً من بطولات القوات المسلحة المصرية فى حربها ضد الجيش الصهيونى، ولكنه رصد - بالأساس - الدعم العسكرى العراقى لها فى هذه الحرب.. وهو الكتاب الذى لاقى غتاً فى تداوله بعد صدوره بسنوات، نتيجة الخلاف السياسى بين القاهرة وبغدادعلى خلفية «كامب دافيد» ١٩٧٩، ثم بعد غزو العراق للكويت (١٩٩٠)، لكنه يظل أحد أعمال الغيطانى المتصلة - مباشرة - بحرب العبور المجيدة.

.. وبعد فهذا جانب موجز مما أبدعه الغيطانى عن حرب ١٩٧٣، التى قضى سنوات قبلها، وقضاها هى ذاتها، مراسلاً حربياً للزميلة «أخبار اليوم» على الجبهة المصرية، والصحافة المصرية تفخر بمراسليها الحربيين فى تلك الفترة كالراحل الكبير»حمدى لطفى» ابن دارالهلال، وصلاح قبضايا وفاروق الشاذلى (الأخبار) ومحمد عبدالمنعم وعبده مباشر (الأهرام) وجلال سرحان (وكالة أنباء الشرق الأوسط) وفاروق الطويل (آخر ساعة) والمصورين الباهرين: شوقى مصطفى رحمة الله عليه (دار الهلال)، ومكرم جاد الكريم وفاروق إبراهيم (الأخبار) ومحمد يوسف (الأهرام).. ومع احترامنا وتقديرنا غير المحدود لكل اسم من هذه الأسماء،

يتبقى اسم (الغيطانى) وحده، منفرداً بنقل وقائع بطولات الإنسان المصرى فى هذه الحرب على امتدادها - من الاستنزاف إلى انتصارات ١٩٧٣ - إلى عالم الرواية والقصة القصيرة والكتاب الأدبى، ليتحول مع الأيام إلى شاهد عيان من أرفع طراز على هذه الحرب العظيمة.

كتب الرواية التاريخية

واستكشف القاهرة الشعبية

عاش الكتابة كمقاومة للنسيان

القاهرة ــ «القدس العربي»: لا أحد يستطيع أن يُنكر المُنجز الأدبي للكاتب والروائي الراحل (جمال الغيطاني ٩ مايو/أيار ١٩٤٥ ـــ ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٥)، بغض النظر عن الخصومات والحسابات الشخصية الشائعة في أوساط المثقفين. فما قدمه الرجل للرواية العربية والأدب العربي يُعد إضافة كبيرة، والسعي به عدة خطوات، من تطوير البنية واللغة والأسلوب.

من ناحية أخرى حاول الغيطاني أن يجعل من التاريخ السياسي والاجتماعي المصري متكأ، وإعادة تأويل لما يحدث في العصر الحديث، وكأنه يعيد صياغة الحوادث في سرد خيالي يؤكد رؤيته أو التساؤل الدائم حول اللحظة الراهنة، لأننا مجتمعات تقدس ماضيها، ورغم ذلك يصبح النسيان هو الفرار الوحيد من هذا الثقل، ليأتي الرجل ويُعيد الحكايا للتذكرة، وربما تنفع الذكرى.

ما أضافته تجربة الغيطاني للرواية العربية هو البناء الصوفي واللغة الصوفية، التي جعلها تمتزج بالنص الأدبي وكأنها من داخله، من دون اغتراب أو إقحام، كما نجد في العديد من النصوص المُتهافتة. ولا نستطيع

القول إن كل أعمال الرجل جاءت بالمستوى نفسه، وبالتالي لم تلق النجاحات نفسها أو الانتشار ـــ بغض النظر عن دعاية الصحف الفارغة ـــ إلا أن هناك عدة أعمال تعد علامة فارقة في مسيرة جمال الغيطاني الروائية، ومسيرة الرواية العربية بوجه عام، منها على سبيل المثال ... «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ١٩٦٩، «الزيني بركات» ١٩٧٤، «وقائع حارة الزعفراني» ١٩٧٦، «خطط الغيطاني» ١٩٧٨، «التجليات» «الأسفار الثلاثة» ١٩٩٠. وربما من خلال روايتي الزيني بركات و«التجليات» يتضح أكثر ما أضافه الرجل إلى مسيرة الأدب العربي.

مساءلة التاريخ

لم تكن رواية «الزيني بركات» رواية تاريخية، رغم الصفحات الطوال المنقولة عن ابن إياس في كتابة «بدائع الزهور في عجائب الدهور»، التي كان يحفظها الغيطاني تماماً، الأمر كان أشبه بمواجهة التاريخ المصري في حقبة من أشد حقباته ظلاماً. دولة تنهار وغزو جديد يأتي، صراع دولة المخابرات أو البصاصين في لغة ذلك الوقت، ليكون الانهيار التام هو المآل الحتمي. لم يكن الزيني بركات مُحتسب مصر سوى صورة أخرى متخفية من صور قهر الشعب المصري، مهما تظاهر بغير ذلك، ومهما حار الناس في أمره. فها هو يحتفظ بوظيفته نفسها بعد انهيار الدولة، واستتباب الأمر للسلطة الجديدة أو الغزو الجديد/العثمانيين. لم يكن أحد من القادة المماليك يهتم لأمر الشعب، والصراع في ما بينهم هو الأهم والأبقى، الذي فناهم تماماً في النهاية وقضى على وجود دولتهم المُستقلة. الرواية لا تكتفي بالإسقاطات السياسية لزمن عبد الناصر ورفاقه، لكنها

توقفت أكثر عند تحليل سياقات السُلطة ووجهة نظرها إلى المحكومين من أبناء الشعب، وما الإصلاحات الوقتية التي افتعلها الزيني بركات، والتي نال من خلالها تحية الشعب، إلا افتعالات لتأكيد سلطته، التي ظهرت تماماً في علاقته بالمثقف الأزهري في عصره ـــ سعيد الجهيني ـــ الذي كان يُناديه بابنه، والذي أصبح من دون أن يدري بوقاً له بين طلاب الأزهر، يُقابله طالب آخر أصبح أداة من أدوات رئيس البصاصين «زكريا بن راضي» على الرفاق في المؤسسة التعليمية الوحيدة والمرموقة في البلاد. اللعبة نفسها التي يتصارع فيها أبناء الظروف القاسية، والفئة نفسها، ليخوضوا الحروب والمواجهات بديلاً عن سادتهم. السؤال في النهاية.. هل تغيّر شيء؟

من ناحية اللغة والبنية السردية نجد أن الغيطاني لم يقسم روايته إلى فصول، بل اختار السرادقات بمثابة لوحات سردية، وقد اخذها أيضاً عن ابن إياس، الذي قسّم كتابه إلى سرادقات، وهي التي تليق بالمحافل من أفراح وأحزان. وهنا يبدو أن التحاور مع شخص مثل ابن إياس لم يقتصر على التناص والتحاور والتعديل، أو حتى التعليق على حدث مذكور في بدائع الزهور، بل امتد الأمر إلى الشكل التقني في السرد، من دون أن يخلق أي اغتراب كان عن المتن الحكائي، فبخلاف الشخصيات والحوادث التاريخية الحقيقية، نجد الخيال الروائي يُعيد صياغة الحكاية بالكامل، وفي ظل النص الأساسي لابن إياس. الهدف من ذلك هو تحليل مفهوم السُلطة وتداعياتها على طبيعة علاقات وروح المحكومين، وما يمكن أن تفعله بهم من تشويه لسلوكياتهم وعلاقاتهم، عالم من الفوضى والذعر، كان لابد

حتماً أن ينتهي بالهزيمة وضياع البلاد. وهو الأمر الذي وإن كان يخص جزءا من التاريخ المصري، لكنه من الممكن أن يمتد ويشمل المنطقة العربية وممالكها وإماراتها، التي لا تختلف كثيراً من حيث بنية السُلطة وطبيعتها، والتي مهما طال بها الأمد ستسقط لا محالة.

الرحلة التي لا تنتهي

يبدو الحِس الصوفي وتجارب الصوفية وأقطابها، خاصة الشيخ الأكبر «ابن عربي» حاضراً ومسيطراً على نص «التجليات»، وكأن الغيطاني أراد حواراً مع ابن عربي، يتم فيه التعرّض لما كان وما هو كائن والأمل في ما سيكون، وعبر لغة الصوفية وتراكيبها الخاصة تسير الرواية أو الأسفار، وحيث يتفاعل من خلالها العديد من النصوص تراثية كانت أو حديثة، عربية او أجنبية، دينية وتاريخية، وصولاً إلى التراث الشعبي المصري، وما يحمله من روح هذا الشعب ومعتقداته التي تطورت وتحوّرت مع الزمن في ظل سلطة جديدة أو ديانة جديدة، أو إيديولوجيا بشّرت بعالم أفضل. هذه النصوص يستمدها الراوي ويُضيف إليها من ذاكرته وتجاربه اليومية، لا فارق هنا بين خاص وعام، حالة واحدة مُمتدة تسأل وتبحث عن إجابات مهما كانت مستحيلة. فالتناص هنا لا محدود، وإن كان ابن عربي وطريقته ومعراجه هو الأساس، حتى أن تداخل وتمازج هذه النصوص يصعب تصوّر أو العثور على مصادرها في سهولة، فاللغة أحاطت بالعمل ككل، وجعلته من حيث البناء والتراكيب اللغوية وما توحي به في شكل مستقل عما أخذ من نصوص، وهي براعة وتقنية جعلت النص مستقلا بذاته، بناء يختلف

عن تفاصيله، وهي تجربة غير مسبوقة في الأدب العربي، رغم العديد من المحاولات السابقة واللاحقة عليها.

لم يقف ابن عربي حائلاً بين حداثة الأحداث والرؤى التي حشد بها الراوي، والمتحدث بضمير الـ(أنا) طوال الرواية، من أن يحاول الراوي إعادة بناء الحدث، والتعليق أو حتى مجاراته والسخرية منه. هناك حِس ديني من حيث اللغة والمحتوى، لكنه لا يصبح عقبة سردية في وجه التاريخ، كالتعليق على مقتل السادات، وأن هذا الفعل كان من أمنيات الراوي، لكن شخصا مجهولا جاء وحققه! هنا يختلط السياسي والاجتماعي في لغة عليا، اختارها الغيطاني لتصبح أداة النص الأولى، وليخلق من خلالها عوالم تقترب من الفانتازيا والتغريب، من دون أن تنفي أو تتعارض مع الحدث المعروف للجميع. ومن خلال هذه التقنية يفلت الروائي من بساطة التوثيق إلى أفق الخيال في حده الأقصى، ليصبح النص بدوره وثيقة كاملة، من الممكن محاكاتها أو محاولة ذلك.

التفسير النفسي والحِسي للراوي كان الهَم الشاغل لما حدث ويحدث، وبالتالي حمل النص شحنات عاطفية كبيرة، وأثار العديد من الأفكار والرؤى ووجهات النظر بالنسبة للمُتلقي. تناص النصوص خلق هذه الحالة، فلم يكن نصاً تقريرياً يتم قبوله أو رفضه، من خلال تحليل المؤلف للحدث، بل حاملاً رؤى وزوايا ووجهات نظر، رغم الراوي الواحد، إلا أن حالة التساؤل الدائمة طوال النص، التي تتطور من سؤال إلى آخر، ولا تكتفي بإجابة او لا تجد بمعنى أصح، أتاحت للنص أن يصبح في حالة دائمة من التأويل وإعادة التأويل، نص حي، كنصوص الصوفية الكبار، لا ينتهي

بمجرد أن يبدأ. ونحاول استعراض شهادات بعض الأدباء حول الغيطاني، سواء من خلال مَن قرأ له أو عمل معه في «أخبار الأدب».

أحد البنائين الكبار

بداية يذكر الشاعر عيد عبد الحليم، أن الغيطاني... يعتبر أحد رموز الرواية المصرية والعربية في القرن العشرين، وأحد المجددين من جيل الستينيات. منذ عمله الأول «أوراق شاب عاش منذ ألف عام». ثم بعد ذلك اتجاهه إلى ما يمكن أن نسميه السرد المعماري، حيث كان الغيطاني أحد البنائين الكبار في الرواية العربية، فقد كان لا يعتمد على الفكرة أو حكاية الأحداث، أو التفاصيل الصغيرة، بل ما يمكن أن نسميه أيضاً بالمشهد الكبير، ولذلك ربما اتجه لفكرة مناقشة الماضي في أعماله، يتجلى ذلك في «الزيني بركات»، والكثير من الروايات الأخرى، كـ«التجليات» على سبيل المثال، وغيرها من الروايات التي اشتبكت مع الماضي اشتباكاً حميمياً، وكذلك ربط هذه الأعمال بما يحدث على أرض الواقع. كما كان الغيطاني أحد أهم التلاميذ النجباء لنجيب محفوظ، الذي كان أستاذه الأول، حيث كان الغيطاني يُجالسه ويعرض عليه ما يكتبه، حتى صار الغيطاني أحد الذين تتفاخر بهم الرواية العربية. من ناحية أخرى لا ننكر إسهامات الغيطاني في الكتابة الأدبية الصحافية، فهو أحد أهم المؤسسين والمؤثرين في الصحافة الأدبية، سواء من خلال رئاسته للقسم الثقافي في جريدة «الأخبار»، أو تأسيسه لجريدة «أخبار الأدب» عام ١٩٩٣، التي أسهمت في تبني العديد من التجارب والمواهب الإبداعية في مصر والوطن العربي، والتي أصبحت

الآن ذات صوت وتأثير في عالم الأدب. كل العزاء لأسرة الكاتب الكبير ولمصر وللوطن العربي.

الموروث والعالم الروائي

ويقول الصحافي والروائي ناصر عراق... برحيل جمال الغيطاني تفقد الساحة الروائية المصرية واحداً من أخلص مبدعيها، وأكثرهم إيماناً بمشروعه الروائي، كما أن الغيطاني استحق أن يكون أبرز أبناء جيل الستينييات الذين تأثروا بالمعلم الأول نجيب محفوظ، لكنه شق لنفسه طريقا مغايرا. هذا الطريق اتكأ على استلهام التراث – المملوكي تحديداً – وإعادة إنتاجه في قوالب روائية متميزة ومترعة بالإثارة والتشويق، وها هي «الزيني بركات» تعد نموذجا مدهشا لفن الرواية المستند إلى استلهام التراث، ويبدو لي أن جمال الذي درس فن النسيج بما يحتشد من زخارف عربية إسلامية تمكن من تعميق علاقته بالموروث الإسلامي/المملوكي، ودرسه جيدا واستوحى مقوماته الأساسية لينطلق منها إلى عالمه الروائي الثري. كما لا يمكن أن ننسى للغيطاني دوره المهم للغاية في ترسيخ الصحافة الثقافية وتعزيزها من خلال رئاسته لتحرير «أخبار الأدب» لنحو ١٧ سنة، وقد شرفت بالعمل معه في هذه المطبوعة في سنة ١٩٩٨. وأشهد أنه كان عليما بالفنون الجميلة وروادها وأسرارها وفنانيها بصورة مدهشة، حيث منحني الصفحة الأخيرة أكتب فيها كل أسبوع في قضايا الفن التشكيلي ونجومه. لا ريب أن رحيل الغيطاني سيترك أثرا شديدا في الوسط الإبداعي العربي والمصري.

الدور التنويري

ويرى القاص والروائي أيمن غانم... أن جمال الغيطاني يُعد علامة بارزة في الحياة الثقافية المصرية والعربية، من جهة تنوع إنتاجه ما بين الصحافة والفكر والأدب، إلى جانب إسهاماته في الحفاظ على التراث التاريخي والحضاري لمصر وعمليات التوثيق التراثي التي قام بها، لاسيما لمناطق القاهرة القديمة، ويظهر بوضوح تأثير الولع بالتراث في أعمال الغيطاني، ليس فقط من حيث استلهام شخصيات، ولكن أيضاً يظهر ذلك في المفردات والتراكيب اللغوية في عدد من أعماله، وحتى في اختياره لعناوين مؤلفاته يظهر أثر التراث. ويبقى أن الدور الأكبر للغيطاني، رحمه الله، هو الدور التنويري، فلم يتوان يوماً عن التصدي للأفكار الظلامية، ولم يكن من النوع الذي يؤثر السلامة في مواجهة الجماعات المتأسلمة ومحاولاتها منع نشر بعض الأعمال الإبداعية، ومع ثورة يناير/كانون الثاني زاد دوره في التحذير من تصدر قوى ظلامية للمشهد السياسي والاجتماعي المصري. كما قدّم الغيطاني إسهاماً كبيراً في تمهيد الطريق أمام العديد من الأدباء الشباب، من خلال تجربته في تأسيس ورئاسة تحرير صحيفة «أخبار الأدب»، التي كانت نافذة واسعة أمام المبدعين، لاسيما أدباء الأقاليم.

مقاهى جمال الغيطانى

تشغل المقاهي مكانة خاصة في صلب المجتمع المصري عمومًا والقاهري تحديدًا. فالمقهى عالم خاص متشابك العناصر يعكس الواقع الإنساني والاجتماعي والسياسي للبلاد. وعلى الرغم من تواجد المقاهي كمبانٍ ركائزية في صلب المجتمع. إلا أنه لا يوجد لدينا تاريخ محدد يحدد عمر المقاهي في مدينة القاهرة أو في مصر عمومًا. ولكننا تمكنا من تحديد عمر مشروب القهوة وهو المشروب الذي استمدت منه القهوة لفظها "مقهى."

فيذكر الأديب الكبير جمال الغيطاني في مقدمته لكتاب مقاهي الشرق للمستشرق جيرار جوروج ليميز أن اكتشاف البن والقهوة تم على يد المتصوف أبي بكر بن عبد الله العيدروس وذلك أثناء سياحته بأرض اليمن حيث لاحظ وجود شجر البن بكثرة، ولم يكن أحد يقرب ثمره فتناول بعضًا من هذه الثمار فوجدها تجفف العقل وتجتلب السهر وتنشط العبادة فاتخذها طعامًا وشرابًا وأوصى أتباعه بها.

ووصل العيدروس إلى بر مصر في عام ٩٠٥ هجرية. ومعه ثمار البن والتي أصبحت شرابًا للصوفية في مصر، ثم للعامة من بعد ذلك.

وإن كانت كلمة مقهى قد جاءت من القهوة والجوزة من ثمرة جوز الهند والتي كانت تستخدم كبديل للبرطمان في الجوزة حاليًا. تبقى هناك مصطلحات عدة في المقهى ليست من صميم اللغة العربية فكلمة "شيشة"

هي لفظ فارسي بمعنى الزجاج. و"النارجيل" أيضًا لفظ فارسي يعني جوزة الهند.

ومع بدايات القرن العشرين وفي ظل الاستعمار الأجنبي للبلاد. شهدت القاهرة حركة وعي وطني وثقافي ألقت بظلالها على المقاهي فأصبحت مراكز هامة للنشاطات السياسية والأدبية والفنية. وبرزت من بين آلاف المقاهي التي تعج بها القاهرة عدة مقاهي ظلت محفورة في ذاكرة التاريخ لما شهدته من أحداث ووقائع هامة في تاريخ مصر.

مقهى الفيشاوي

هو أشهر مقاهي القاهرة حاليًا بلا منازع. عمره اختلف فيه العامة والمتخصصون، البعض قدره بمائة عام والبعض بمائتين ووصل به البعض لحدود ألفية كاملة من الزمان. ويقع مقهى الفيشاوي في مكان متميز يطل بواجهته على ساحة المشهد الحسيني من جهة ويشرف من جانبه على بداية شارع خان الخليلي.

اشتهر المقهى على مر السنين بشايه الأخضر المعطر بالنعناع. والتمباك المستورد الفاخر. ويحوي المقهى في داخله آيات من التحف الفنية الفريدة التي أهداها الملوك والأمراء إلى صاحبه. أو التي صنعها أمهر الحرفيين المصريين خصيصًا للمقهى.

فالمرايا الضخمة ذات الأطر المزخرفة بالزخارف الإغريقية الموجودة بداخل المقهى مهداه من أمير من العائلة المالكة في بلجيكا في أواخر القرن الثامن عشر.

أهداها لصاحب المقهى إعجابًا منه بما وجده من حسن الخدمة في المقهى. كما توجد سجادة حريرية رسمت عليها مشكاة تطل منها الزهور أهداها ملك الأفغان للمقهى. هذا بالإضافة إلى الأواني النحاسية المزخرفة المصنوعة بيد أمهر حرفيي مصر والفناجين والأواني الخزفية التركية أو التي جاءت من بلاد شرق وأواسط آسيا.

ومن النوادر المتعلقة بالمقهى تلك التي كانت تُحكى عن المعلم الكبير صاحب المقهى والإمبراطورة أوجيني زوجة الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور فرنسا. أثناء زيارتها لمصر أثناء حفلات افتتاح القناة. ففي أثناء جولة الإمبراطورة بالمنطقة القديمة ومشاهدتها للجوامع الأثرية بشارع المعز لدين الله ألمت بها وعكة خفيفة من شدة الحر.

ولم يكن هناك مكان قريب لتستريح فيه الإمبراطورة المتوعكة غير مقهى الفيشاوي. وبالفعل هرع الحرس إلى المقهى لتنظيفه وتهيئته لاستقبال الإمبراطورة. واقترحوا على المعلم إحضار أطقم للشاي والقهوة من القصور الخديوية لتليق بمقام الزائرة. لكن المعلم أبى ذلك وقال إن لديه مقتنيات من الأطقم الخزفية والأكواب الزجاجية ليس لها مثيل في أعظم القصور الخديوية. ووقف المعلم ابن العشرين ربيعًا والذي كان يعرف بالألفي "لمضاجعته ألف امرأة منذ بلوغه" على باب المقهى لاستقبال الإمبراطورة والترحيب بها في المقهى.

ويقول شاهدو العيان آنذاك أن الإمبراطورة انبهرت بما رأته من تحف ومقتنيات داخل المقهى، لكن الذي أبهرها أشد الإبهار هو صاحب المقهى، فلم ترفع أوجيني عينها من عليه للحظة وفضحتها نظراتها للرجل.

وفي اليوم التالي طلبت الإمبراطورة أن يتم إحضار المعلم صاحب المقهى لكي يعد لها الشاي الأخضر المعطر بالنعناع في قصرها. وذهب الرجل فعلًا إلى القصر وأعد لها الشاي الأخضر المعطر بالنعناع وسقاها بيديه أيضًا. لكن هل خلا بها؟ هذا ما أرادات الإذاعة البريطانية أن تعرفه حينما أرسلت مندوبًا لها إلى القاهرة وجاء إلى المقهى ليعرض على المعلم شيكًا على بياض مقابل أن يخبره إذا ما كان قد خلا بالإمبراطورة أوجيني عندما التقاها منذ ٧٠ عامًا أم لا ؟ ولكن المندوب كان ملقى خارج المقهى بعد أن أتم سؤاله على العجوز الذي قارب المائة من العمر دون أن يتلقى إجابة.

وكان للمقهى زبائنه الدائمون من الأدباء. عبد الحميد الديب الشاعر الساخر كان من رواده الدائمين في الأربعينيات حيث كان يلتقي بشاعر النيل حافظ إبراهيم ويجلسون لتبادل الأحاديث والنوادر والقفشات مع رواد المقهى.

وللمقهى صلة حميمة بأديب نوبل نجيب محفوظ والذي كان من عادته اليومية بعد خروجه من عمله في إدارة القرض الحسن التابعة لوزارة الأوقاف أن يمر على المكتبة المجاورة للمقهى ليشتري منها ما جد من الكتب والدوريات ثم يصل إلى المقهى في تمام الثانية والنصف ظهرًا

ليلتقي بأصدقائه وتلاميذه من أمثال الأديب جمال الغيطاني ويوسف القعيد والكاتب رجاء النقاش وغيرهم.

وما زال المقهى حتى الآن مقصدًا للصفوة من الأدباء المصريين. وأصبحت الجلسة فيه ركنًا أساسيًّا في زيارات الأجانب لمصر. حتى إن هناك فرقة غنائية عالمية تدعى "إسكيمو جو" تغنت به كواحد من معالم مصر السياحية الهامة.

مقهى ريش

يقع في منطقة وسط البلد. وعلى عكس الفيشاوي الذي لم نعلم تاريخًا محددًا لإنشائه. فمقهى ريش أنشئ في الـ٢٦ من أكتوبر لعام ١٩١٤م. على يد رجل نمساوي يدعى "بيرنارد ستينبرج". ثم انتقلت ملكيته بعد أعوام قليلة لرجل فرنسي يدعى "هنري ريش" والذي أطلق اسمه على المقهى ليعرفه الناس باسم مقهى ريش.

وبعد انحسار الدور الأجنبي في مصر في أعقاب حرب فلسطين باع هنري ريش المقهى لصعيدي مصري يدعى "عبد الملك خليل" وهو والد "مجدي خليل" صاحب المقهى الحالي والذي يعد لمشروع كتاب عن تاريخ المقهى بالتفصيل.

ومكان المقهى كان في الأصل قصرًا للأمير محمد علي توفيق ولي عهد مصر والذي باع القصر لستينبرج وأنشأ قصرًا عظيمًا في منيل الروضة بدلًا منه.

واكتسب المقهى شهرة واسعة منذ بداياته فكان ملتقى لسعد زغلول وأنصاره وتلاميذه من الوفديين أمثال مصطفى النحاس وأحمد ماهر ومكرم عبيد وغيرهم. كما اهتم المقهى بالتعاقد مع أشهر الفنانين من أمثال صالح عبد الحي والشيخ أبي العلا محمد. والصوت الصاعد أم كلثوم إبراهيم وجوقتها الغنائية والتي كانت تشملها هي ووالدها وأخاها خالد. وحققت آنذاك نجاحًا كبيرًا مما دفع المقهى للتعاقد معها لإحياء حفل أسبوعي دائم كل خميس. وكان ثمن الكرسي المخصوص في المقهى بـــ١٥ قرشًا والدخول العمومي بـــ١٠ قروش. وفي مقهى ريش كان المونولجست محمد عبد القدوس والد الأديب الكبير إحسان عبد القدوس يلقي بمونولجاته فيما كانت روز اليوسف الممثلة في فرقة عزيز عيد تمثل المسرحيات على خشبة المسرح الموجودة بالمقهى وتعرف محمد عبد القدوس على روز اليوسف في ريش وأعلنا عن زواجهما على الملأ في ريش أيضًا.

وتمر الأيام ليصبح إحسان عبد القدوس واحدًا من رواد المقهى في فترة ما قبل الثورة مباشرة والتي بلغ فيها مقهى ريش تألقه، فكان مجلسًا للعديد من المشاهير من أمثال توفيق الحكيم وكامل الشناوي وأحمد رامي وأم كلثوم والقصبجي وسليمان نجيب ود. لويس عوض ولم يكن النجوم فقط من رواده فكان هناك أيضًا الجواسيس والعملاء والذين كانوا يجدون في ريش مبتغاهم من آخر الأخبار عن القصر والحكومة.

وفي السبعينيات كانت ندوة نجيب محفوظ تعقد فيه بعد إغلاق مقهى الأوبرا مقر ندوة محفوظ السابق. في البداية استقبل صاحب المقهى نجيب

محفوظ وتلاميذه بالسرور والبشر. لكن مع تعاقب الأحداث وتوقيع الرئيس السادات لاتفاقية السلام مع إسرائيل أصبح المقهى يعج بالمئات من معجبي نجيب محفوظ وكانت حماسة الشباب فيهم تدعوهم إلى معارضة الاتفاقية والسادات علانية وبشدة؛ مما دفع صاحب المقهى لإغلاقه لفترة وجيزة تجنبًا للمشاكل.

ومن المفارقات المثيرة اكتشاف المطبعة السرية التي كانت تقوم بطبع منشورات ثورة ١٩١٩ مصادفةً بعد زلزال عام ٩٢، حيث حدث تصدع في أحد جدران المقهى كشف عن وجود حجرة سرية خلفه تحوي بداخلها مطبعة يدوية قديمة وبجوارها بعض المنشورات التي تحث المصريين على مواصلة الكفاح ضد المستعمر، ومناصرة سعد زغلول والوفد في كفاحهم نحو الاستقلال.

مقاهٍ مختلفة

هناك مقاهٍ أخرى نالت حظها من الشهرة أيضًا وإن لم تكن بنفس قدر الفيشاوي وريش. من أمثلة هذه المقاهي قهوة محمد عبد الله والتي كانت تطل على ميدان الساعة بالجيزة إلا أن أغلقت في منتصف الخمسينيات، وكان من زبائنها الكاتب الساخر محمود السعدني وزكريا الحجاوي والفنان البوهيمي عبد الرحمن الخميسي وشيخ النقاد أنور المعداوي. كما شهدت ولادة العشرات من الأدباء ونوابغ الصحافة من أمثال دكتور يوسف إدريس والأديب سمير سرحان والفنان طوغان والشاعر السوداني معين بسيسو وغيرهم.

مقهى اللواء بباب اللوق والذي اكتسب اسمه من جريدة اللواء التي أسسها الزعيم مصطفى كامل وكانت ملتقى للعديد من فحول السياسة والأدب والفن وفي مقدمتهم مصطفى كامل وشقيقه علي كامل وأنطوان الجميل صاحب الأهرام والشيخ عبد الحميد قطامش وطاهر أبو فاشا وغيرهم.

ويظل للمقهى دوره الحيوي في قلب القاهرة حتى الآن. وتظل هناك مقاهٍ محددة للأدباء والفنانين الصاعدين كمقهى التكعيبة القابع في وسط البلد الآن.

الغيطاني وجدلية المجرد والمحسوس

في متون الأهرام

إن تكن الرواية منذ ولادتها الجنس الأدبي الأشد فقراً بصفة عامة فإنها في الأدب العربي لم تكن جنساً أدبياً مقبولاً، إن لم نقل إنها كانت مرفوضة تماماً. لذا كان على الرواية أن تدافع عن نفسها إزاء كل أشكال التعالي والإزدراء، شبه الجماعيين. وكان هذا الرفض يرجع ظاهرياً إلى إنعدام الجذور، إذ كان نموذج الرواية "مستورداً"، فضلاً عن ذلك فالرواية غزت ميدان الجنس الأدبي الأكثر أصالة في الأدب العربي، ونعني به الشعر الذي دعي مجازاً بـــ "ديوان العرب"، نظراً للأهمية الفائقة التي حظي بها منذ العصر الجاهلي، لذا ضمت المعلقات عيون الشعر الجاهلي وعلقت على باب مكان مقدس كالكعبة.

وظل الشعر يحتل هذه المكانة المميزة في الأدب العربي حتى إكتشفت الرواية في مطلع القرن العشرين، وذلك من خلال ترجمات مباشرة لمؤلفات باللغة الإنجليزية أو الفرنسية تم تعريبها.

والنموذج الأشد تعبيراً في هذا الصدد هو رواية "زينب، مناظر وأخلاق ريفية"، وقد نشرها المؤلف الأديب السياسي المصري متعدد الإبداع محمد حسين هيكل، في عام ١٩١٣، باسم مستعار هو "إبن الريف"، درءاً للإزدراء، وشعوراً منه بالحياء لإقدامه على تعاطي فن على هذا القدر من الإبتذال: الفن القصصي، حسب المفاهيم السائدة آنذاك.

وقد شاء كثير من الباحثين أن يرى في هذا العمل ميلاد أول رواية عربية حديثة، تجمع عناصر وتقنيات هذا الجنس الأدبي، ولو أنها مسألة ما زالت موضع نقاش ومثار جدل، نظراً لأن للفن القصصي جذوراً عربيةً في صيغ أدبية متعددة تعود إلى العصر الجاهلي، تتجسد في الملاحم والأساطير والحكايات وفي أخبار المآثر الحربية مروراً بقصص القرآن الكريم وكليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وأسفار السندباد، إضافة إلى الحكايات التي أوردها الشعر نفسه والمقامات من بين مصادر أخرى.

مع ذلك فقد أحدثت الآداب الأوروبية السائدة، آداب المرحلة الإستعمارية في القرن التاسع عشر وفي جزء كبير من قرننا الحالي، تغييرات جوهرية في الأدب العربي. إذ إستعار هذا الأخير صيغاً جديدةً منه، وخصوصاً في فن الرواية، لتكتمل بهذا حلقة من عمليات التأثير والتأثر الثقافي والحضاري بين ضفتي البحر المتوسط.

من هنا يتضح لنا أن عمر الرواية كجنس في الأدب العربي المعاصر قصير مقارنةً بعمر مثيلاتها في الأدب الأوروبي التي تعود بجذورها إلى العصور الوسطى، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن هذا الجنس الأدبي الأوربي يرجع في بداياته إلى الأدب العربي، وتحديداً إلى فن المقامة العربي وإلى مؤلّف ذي تأثيرات عربية واضحة، ونعني به " **Disciplina clericalis** النظام الكهنوتي" للأندلسي موسى سفاردي الذي إعتنق المذهب الكاثوليكي عام ١١٠٦ واتخذ لنفسه إسم بدرو ألفونصو، كما أورد ذلك الكاتب والناقد المصري المختص بالدراسات والأندلسية الدكتور الطاهر أحمد مكي

المعروف بنزاهته وجديته بوصفه باحثاً أكاديمياً في حقل الدراسات المقارنة واله.

وقد لقي تطور الفن القصصي آنذاك في مصر أرضاً خصبةً إذ كانت البلد العربي الوحيد في محيطه الذي نمت فيه طبقة برجوازية، وهو أمر يمكن رده إلى عوامل محددة من بينها وجود الأزهر كمؤسسة وحملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٩-١٨٠١م) ومحاولة محمد علي تأسيس دولة بالمعنى الحديث في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مما هيأ الفرصة لإحداث تنامٍ في الروح الوطنية الإقليمية. إلا أن محاولة تحديث بلاد النيل هذه سرعان ما أجهضت على نحو ما من قبل القوى الغربية الممثلة آنذاك ببريطانيا وفرنسا وروسيا وذلك في معركة نافارين عام ١٨٢٧ التي دمر فيها الأسطول التركي-المصري. برغم ذلك فقد أدت العوامل آنفة الذكر إلى النهضة العربية مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما حدث تطور في النشاط الأدبي مما أفسح المجال لولادة جيل أول من الأساتذة الكبار في ميدان الشعر الغنائي، غدوا فيما بعد قمماً حقيقيةً، في الشعر الكلاسيكي في مرحلة ما بين القرنين

وقد بدأ الفن القصصي في الإنتشار عموماً منذ العقد الثاني للقرن العشرين على نحو ملفت للنظر وأخذ يشهد نمواً حقيقياً، هذا دون أن نغفل التأثيرات الغربية فقد إتخذ من الإتجاه الطبيعي والإجتماعي أداة لهذا التغيير، خصوصاً في مجالي القصة القصيرة والرواية.

كانت مصر إلى جانب العراق ولبنان محور ذلك الإزدهار الذي بلغه الفن القصصي حيث برز أساتذة كبار كالأخوين تيمور وفيما بعد طه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي ويحيى حقي ويوسف إدريس ونجيب محفوظ. وعلى يد هذا الأخير وآخرين سواه مثل توفيق الحكيم بلغت الرواية العربية المعاصرة ذروة تألقها كما أنه غدا معلماً لكتاب من الأجيال اللاحقة من الروائيين العرب، ومن بينهم جمال الغيطاني نفسه.

وقد شهد الفن القصصي على أيدي هؤلاء الكتاب أبهى مراحله في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية،وصولاً إلى منتصف القرن الذي شهد تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وهو الحدث الذي هز الوطن العربي وثقافته ووسم جميع مظاهره الأدبية.

لقد أسهم هذا الحدث في ولادة نظم ثورية وفي تنامي المد القومي العربي الذي بلغ أوجه وتجسد معلمه البارز في الزعيم المصري جمال عبد الناصر طوال الخمسينات والستينات.

وهكذا بدأت الرواية بالإنتشار في معظم أقطار المنطقة، وأخذ تبرز كجنس أدبي مكرس لتغزو جزئياً ميدان الشعر الذي كان حتى تلك اللحظة أرضاً محرمةً.

وفي أعوام الستينات تلك برزت في مصر الناصرية مجموعة من الروائيين الذين ينتمون إجتماعياً إلى البرجوازية الصغيرة وقد قدموا من الريف أو المدينة، وهم من بيئات متواضعة في أغلب الأحيان. أكبرهم سناً

الروائي السكندري إدوار الخراط (١٩٢٦م)- وقد صدرت ترجمة روايته "الأسكندرية، ترابها زعفران" باللغة الإسبانية عن دار نشر ليبرتارياس- في حين كان أصغرهم سناً هو الروائي جمال الغيطاني (١٩٤٥). وبين هذين العامين ولد آخرون منهم صنع الله إبراهيم الذي ترجمت روايته "اللجنة" إلى الإسبانية وصدرت عن در النشر المذكورة آنفاً، وبهاء طاهر وإبراهيم أصلان ويوسف القعيد ويحيى الطاهر عبد الله وعبد الحكيم قاسم ومحمد مستجاب.

وكانت هذه المجموعة من الكتاب شاهداً على عصر حافل بالأحداث الكونية الهامة، بدءاً بالحرب العالمية الثانية والحرب الباردة وانتهاءً بانهيار الإتحاد السوفيتي الذي مثل المرجع الأيدلوجي بالنسبة إليهم، وحرب الخليج. وعلى الصعيد العربي شهد أعضاء هذا الجيل بعمق أحداثاً أثرت فيه بشدة من بينها محنة تقسيم فلسطين وتنامي المد القومي العربي بتأثير الناصرية، ونكسة يونيو ١٩٦٧ وآثار تدفق عوائد النفط إثر حرب أكتوبر ١٩٧٣ واستبدال إشتراكية عبد الناصر بالإنفتاح الإقتصادي الذي قام به خلفه المباشر السادات، وعواقبه الإجتماعية والسياسية التي لا يزال تأثيرها قائماً.

في هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن عبد الناصر كان هو القائد الوحيد الذي حظي بدعم أغلبية أولئك الكتاب الشباب إذ وجدوا فيه وفي مشروعه السياسي تجسيداً لأحلامهم. بيد أن موقفهم هذا لم يحُل دون حدوث نوع من المواجهات بين بعض أفراد هذا الجيل والنظام، مواجهات أدت بأكثر من واحد منهم إلى السجن، ومن بينهم الغيطاني نفسه.

يلاحظ أن هذا الوضع المعقد إنعكس على نتاج هذا الجيل القصصي الذي إستوعب جدلية كانت بدورها قد ولدت نتيجة للواقع المعقد ولحساسية عناصره المكونة. وبعيداً عن أي محاولة لتبسيط هذا النتاج ومن ثم حمله إلى التسطيح حري بنا أن نؤكد على جهود كتاب هذا الجيل في إستعادة الواقع من خلال الأيديولوجيا وذلك باللجوء إلى أدوات وتقنيات جديدة تهدف إلى الإرتقاء بالمستوى الفني لأعمالهم ولإنقاذ الفن القصصي من الوقوع في هوة السطحية التي إنزلقت إليها روايات بعض كتاب الخمسينات والستينات مثل يوسف السباعي والتي فسحت المجال لإشاعة نوع من الأمية الفنية والجمالية.

في هذا المناخ ظهرت أعمال تجريبية تحولت إلى إنعكاس للواقع المصري، وبنحو ما للواقع العربي عموماً من خلال إتباع بناء زائغ ومعمار معقد وجمالية تصب في محاولة تطويق سذاجة النصوص والحد منها. خصوصاً تلك النصوص التي تهدف إلى إستثارة عواطف القراء على نحو مفتعل، وكذلك في محاولة تنمية الحس الجمالي للمتلقي والإرتقاء به بتحفيز ذاكرته التاريخية من خلال إقامة علاقات لغوية توحي إليه بتناولها على نحو مسبق، بإستخدام بعض التعبيرات والإستعارات والصيغ الجاهزة مسبقاً التي تبعث في ذهن القارئ بعض المعاني الدفينة الهاجعة في الذاكرة. كما إستعان أولئك الكتاب بشخصيات ووقائع تاريخية ذات دلالات دينية أو سياسية بهدف إفساح المجال لتقديم موازيات لها في المخيلة. فالأمر يتصل بواقع يعج بالمتناقضات، واقع تحاول الأيديولوجيا أن تحيده في طرح الأسئلة إزاء التراث الثقافي وإزاء "الآخر". وبهذا السياق كان

[redacted] الذي يمثل حاضنة ماضٍ مجيد في الوقت نفسه رفض "الآخر"، أو الإستعانة بالواقع سواء في الماضي أم في الحاضر من خلال منظور كلي. وكانت الكفة متعادلة نظراً لأن الإهتمام إنصب في الموروث، في التراث الشعبي، ما كانت الأيديولوجيا قد همشته، أي الموروث المحلي: الفرعوني والقبطي والصوفي الإسلامي. أما عن " الآخر" فقد رأى فيه أولئك الكتاب وفي تراثه معادلاً وتلبيةً لحاجات واقع مختلف عن الواقع المحلي دون أن يعني ذلك رفضه تماماً. تدلل أعمال مجموعة الستينات على جهد جاد في إبداع رواية أصيلة مبتكرة هي إنعكاس لواقع تاريخي محدد، بكل قوته وعمق آثاره، ومعالمه التاريخية. وقد حملتهم هذه الأصالة على تجاوز إهتمام أسلافهم في الإستفادة المباشرة من القوالب الغربية، وذلك بأن أقاموا أعمالهم على أساس الواقع المحلي، برغم ذلك فقد إحتفظت نصوصهم بعلاقة إشتباك مع هذا الواقع دون أن يعني ذلك إطلاقاً رفض رموز الفن القصصي العالمي والإقليمي مثل جيمس جويس وتشيخوف وديستوفسكي وفوكنر وكامي ومحفوظ والمازني وإدريس ..إلخ.

وكان عسيراً على أولئك الكتاب الشباب أن يجدوا أنفسهم في مواجهة العنف المنظم واحتكار كل أنواع السلطات من قبل فئة عسكرية متحكمة مما أجبرهم على مواجهة شبح كلي القدرة، مطلق الحضور، ممثل بالدولة. والخيارات المتاحة أمامهم لم تكن كثيرة فإما أن يتحول الكاتب إلى موظف في الجهاز الحكومي وهو خيار مرفوض، أو أن يلزم الصمت وهو

ما لم يقدم عليه. إزاء هذا الوضع آثر الروائي الإنسحاب وعدم التورط فيما يحدث وتحويل عمله إلى أداة للتماهي مع المجتمع.

لم يكن الواقع الذي حاربه نتاج هذا الجيل القصصي إنعكاساً لتاريخ مصر المعاصر، بل إنه إنعكاس لنظامها الرأسمالي الذي أرساه محمد علي حين إستبدل في النصف الأول من القرن التاسع عشر المجتمع بالدولة البيروقراطية. مذ ذاك تحول المثقف إلى ظل للحكام ولتبرير نظامهم السياسي والإداري. ومن عجب أن نرى اليوم في مصر ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين أن العلاقة بين المثقف والجنرال- السلطة- لا تزال قائمة على حالها.

وقد تعزز هذا النظام مع ثورة عبد الناصر التي حاولت تطبيق إشتراكية منقوصة، بعد أن ساد الإعتقاد أول الأمر بأن هذه الثورة التي أعادت السلطة إلى المصريين ستسعى إلى خلق نوع من الوحدة والتفاهم مع الحكام الجدد الذين كانوا مصريين لأول مرة منذ زوال آخر أسرة حاكمة فرعونية.

إلا أن هذه الوحدة سرعان ما استحالت إلى وهم. فالسلطة الناصرية لم تكتف فقط بالحفاظ على النظام الذي أسسه محمد علي وإنما كرسته مما حدا ببعض كتاب هذه المجموعة الأدبية على تبني مواقف صدام مع النظام وهو في أوج قوته. في حين أنهم، ويالمفارقة!، دافعوا عنه عندما تهدده الخطر وكذلك فيما بعد، بعد هزيمته. إذ كانت الخلافات تكمن في الصيغة. فبينما كانوا هم يتوقون إلى التغييرات الثورية الحقيقية السريعة كان

الظرف الإقليمي والعالمي يحول دون تجاوز الحدود، ولا يسمح بمثل تلك الثورات الإجتماعية السياسية. برغم ذلك حاول أولئك الكتاب أن يستعيدوا القيم التي كانت "الدولة" قد شوهتها بعدما إنقلبت الأوضاع وراح النظام الناصري يتداعى. من هنا تعاملوا مع التراث الشعبي وعاملوا "الأخر" كما هو – من حيث كونه واقعاً تاريخياً موضوعياً مختلفاً عنهم– من غير أن ينحرفوا إلى سياق آخر، وهو ما نجحوا فيه.

وجمال الغيطاني مؤلف الرواية التي نتناولها هنا، يبرز من بين الكتاب لجديته وحماسه في الإفادة من هذا الموروث الثقافي. وبذا فقد تحول إلى واحد من أوائل الكتاب العرب الذين لفتوا الإنتباه إلى هذا المعين الذي عانى طويلاً من الإهمال وعدم الإكتراث، إن لم نقل الإزدراء من قبل الأجيال السابقة التي وقفت إزاءه موقف المتعالي ذلك أنها كانت تتجه بأنظارها صوب الغرب وصوب مظاهره الثقافية. وهكذا غدا كاتبنا روائياً مكرساً بين كتاب الستينات ورائداً في إعادة إكتشاف التراث الثقافي العربي وجعله في خدمة الأدب المعاصر.

معروف أن هذا الروائي المصري ولد في إحدى قرى مصر العليا، وتدعى جهينة. وكان عليه أن يهجرها مع عائلته في سن مبكرة مرتحلاً صوب العاصمة التي عاش فيها نحو ثلاثة عقود في حي الجمالية الشعبي حيث عبق التاريخ الإسلامي في القاهرة القديمة التي شكلت مصدر إلهام لجزء كبير من أعماله الأدبية والتاريخية

إنتهج الغيطاني هذا المسار منذ روايته الأولى " الزيني بركات"- ترجمت حديثاً ونشرت في إسبانيا مع مراجعة لكاتب هذه السطور- وتمثل محاولةً لتناول واقع معقد متشابك من خلال إستخدام التراث العربي الجماعي، وبشكل خاص التاريخ المشترك، وكما يقول على نحو صائب الناقد والأستاذ الجامعي محمد بدوي " ...إنه يسعى لإعلاء الصوت دفاعاً عن صيغة للإبداع والملاحظة والتطبيق، وهو ما يلاحظ من خلال دأبه على مماثلة ما هو جوهري في الواقع وفي أعماله الأدبية.... إلا أن التشابه لا يعني أن تغدو أعماله محض إنعكاس، مرآة، لما يشهده... ذلك أنه لا يستطيع أن يمتلك دقة عدسة آلة التصوير مما سيهبط بمستوى أدبه، لذا فإنه يسعى لتقديم إبداع أدبي قادر على بلوغ ما هو جوهري في الواقع، بهدف إغنائه وإتمامه" (

والغيطاني، هذا التلميذ الوفي لأستاذ الفن العربي الروائي نجيب محفوظ وكاتب سيرته الذاتية، يجوب التاريخ لا رغبةً في كتابة رواية تاريخية بل في الإرتكاز إلى ما هو أبعد من التناص. بمعنى إنه في "متون الأهرام"، هذا العمل الأدبي الذي نحن بصدده، يفيد من واقع تاريخي معين، هو نصوص الأهرام التي خلفها قدماء المصريين كجزء من الموروث الفرعوني، مبرهناً على مقدرته الإبداعية في الكشف عن أسرارها وفي التألق من خلالها. وكان قد جرب هذا الأسلوب نفسه من قبل في رواية أخرى سابقة باستثناء كونه في هذا العمل الذي بين أيدينا الآن يتغلغل في الرافد الأشد قرباً، ونعني به الموروث الفرعوني، وفي جزئه الأكثر إلغازاً: الأهرامات.

يقوم معمار هذا العمل الذي إختير كأفضل رواية في مصر لعام ١٩٩٥ على أساس وضع نصوص، كتابات، تحل بدورها محل الفصول في السرد التقليدي، عبر أسلوب خاص تميز به الغيطاني. وهو يجسد ولع الكاتب بتاريخه المرئي إلى جانب التجارب العديدة المتراكمة التي تفسح المجال لتدفق شاعرية النص والمكان.

يسجل الغيطاني بهذا العمل معلماً بارزاً جديداً في مساره الأدبي، وهو يتألف من أربعة عشر نصاً، أو متناً، والكلمة الأخيرة بالعربية أكثر إيحاءً ودلالة منها في الإسبانية، ذلك أنها تعني الصلب أو الجزء الأساس في مخطوط ما إزاء الهامش، مما يتطلب الشرح والتفسير المستفيضين في سياق آخر.

ومن خلال هذه المتون، إستطاع الكاتب أن يشيد بناءً هندسياً يقوم على المتون نفسها، وصولاً إلى خلق تشكيل هرمي، مخروطي. إنه هرم مقلوب معمارياً، تبعاً للكيفية التي ينظر القارئ إليه من خلالها، قاعدته تبدأ بنصوص كبيرة تأخذ في الصغر حتى لتنتهي في المتن الرابع عشر، الأخير، بقمة حادة، بكلمة واحدة فقط هي: لا شئ. أي إنها القمة التي تنتهي فيه المادة ويبدأ العدم، حيث تلغى "الأنا" ليبدأ الفراغ. ونصوص الكتاب لها شكل هندسي صمم بعناية وهو شكل مخروطي ذو قاعدة مربعة، تتناقص تدريجياً مجسدة في كلمة واحدة ترتبط بالفضاء حيث يختفي ما هو مادي، ما هو واقعي وحسي، مخلياً المجال لعالم تجريدي، ما وراء المادة، لعالم تخيلي. إنه إعادة إكتشاف العناصر الجوهرية لمخيلة شعب وكينونته وذلك من خلال إتخاذ واحد من الأسس الأكثر تمثيلاً لثقافته،

ونعني بها الأهرامات، محوراً لبناء هذا العمل. إنه بناء روائي يتطابق وشكل الهرم حيث يتوغل بعض الفتية بحثاً عن الحكمة في مسعى شاق هو ثمرة تخطيط وتأهب لبلوغ عمق الأهرامات. في هذا السياق المخروطي يمتزج المادي بالمجرد ليمثلا الطاقة الكامنة في هذه الصروح الفرعونية.

نلاحظ في المتون الأربعة عشر التي تؤلف العمل أنها بدءاً بالمتن العاشر تقتصر على جمل ذات شحنات شعرية موجزة، تخزن معاني عميقة لتنتهي بكلمة واحدة ذات دلالة خاصة. وهنا يلاحظ التناقص الجلي في المادة مما يفسح المجال للفراغ بشكل عمودي حتى ليلامس الفضاء. إنه نموذج للكتابة الحديثة، إذ يتشابك فيه التراثان الفرعوني والإسلامي في نسيج كوني معاصر، مع أنه لا يزال تجريبياً في الفن الروائي العربي، وبرغم أن هذا النموذج يقوم أساساً على حيز فرعوني جداً كالأهرامات فإن الكاتب يمنح الرواية بعداً خاصاً إذ ينفخ فيها روحاً شرقياً.

وهكذا يمثل أمامنا الرحالة المغربي الذي يفد إلى بلاد النيل سعياً وراء هدف خاص، محدد، هو الكشف عن اللغز الأعظم المتمثل بالقبور الملكية لأهرامات الجيزة.

إن إنشغال الغيطاني بالزمن واهتمامه بالتراثه يحملانه على تقديم شخصية الرحالة الذي يقدم من أقصى نقطة في غرب الوطن العربي ليواصل تقليداً معيناً في أدب الرحلات العربي: المسافر مغربي دائماً، ولعل سبب ذلك يكمن في أن مركز الوطن العربي يقع في جزئه الشرقي، بدءًا

بالقاهرة حتى بغداد، مروراً بأمكنة الحج المقدسة في مكة والمدينة، وكما نعرف فإبن بطوطة الذي يعد أكبر ممثل وكاتب كرس نفسه لأدب الرحلات كان من طنجة.

وهكذا يتبع المسافر نصيحة شيخه، معلمه، ليصل إلى القاهرة الإسلامية حيث جامع الأزهر، أحد المعالم المميزة لهذه الجزء من العاصمة المصرية، إذ يقصده كثير من المغاربة الذين حصلوا على واحد من أروقته للدراسة، وصار لهم حي مجاور أيضاً. ومن خلال منارة الجامع يراقب الرحالة لوقت طويل مضي الزمن على قمم الأهرامات التي تقبع على حافة صحراء الجيزة، على بعد عشرات الأميال من القاهرة الإسلامية. إنها نتف، إلماحات، شذرات من أدب الرحلات، موضوعة في خدمة هدف محدد، هو كشف الغامض وفك مغاليق الملغز، لإماطة اللثام عنه، فضلاً عن وجود هدف آخر يكمن في توضيح العلاقة بين الإنسان والزمن ومحاولة تفسيرها.

مما يشار إليه في هذا السياق أن الزمن بوجهيه المادي والفلسفي يمثل الهم الأعظم للغيطاني، وهو هم إنتقل إليه من قراءة كتب التراث الأدبي. وقد دفعه هذا الإحساس نفسه إلى الإهتمام بالزمن والتاريخ بغية فهمه. ففي صباه كان يتساءل:" أين مضى الأمس؟ وهل يمكن إستعادته؟" حتى إكتشف أن الزمن كالإنعكاس في المرآة، إذ يقول " التاريخ يعني الزمن بالنسبة لي. أنا لا أشير إلى عصر بعينه، إنه الزمن في إستمرارتيه وتحوله، والإنسان يقف بين لحظتين: واحدة إنقضت لا يمكن إستعادتها، وأخرى قادمة، قد يعجز عن بلوغها"

ويمكن أن نجد موازياً لهذا الإنشغال بالزمن في أعمال كتاب جيل الـ ٩٨ في إسبانيا- الجيل الذي وقف متسائلاً عن ضياع آخر مستعمرات الإمبراطورية الإسبانية في نهاية القرن الماض، مثل أنطونيو ماتشادو وبيو باروخا وميغيل أنامونو- ولو إنه في حالة إسبانيا كان أكثر عرضيةً، وذلك يعود لإختلاف الدوافع وتباين الظروف.

يمضي جمال الغيطاني في هذا الإتجاه مؤمناً بأن الفنان الحقيقي هو الذي يحتفظ بمسافة معينة تفصله عن الزمن وعن العدم. وهو يختلف عن المؤرخ في أنه يسجل ما لا يدركه هذا الأخير: صميم الواقع أو اللامرئي من الواقع، ما لا تدركه الحواس يكشفه الفنان ويحدده. وهكذا ففي حين أن المؤرخ يروي ويسجل ويحلل مقتصراً دوماً على الأحداث الواقعية، فإن الروائي يبيح لنفسه حرية التصور وتجاوز حدود الواقع التاريخي، ليغوص في أعماقه بحثاً عن معانيه، ودلالاته التي قد تكون رمزية. وانطلاقاً من هذه المقدمة القياسية، فإن الكاتب عندما يوظف بعض الأحداث التاريخية المعينة فإنه يتنبه إلى أن التاريخ محدد بإطار لا يمكن تجاوزه، في حين أنه يتحرر من كل أنواع القيود ويمنح نفسه حرية الإرتجال وإطلاق العنان لمخيلته.

بهذا المعنى، فإن التراث بكل صيغه ليس سوى مسافة، برهة محددة، وهو ما استوعبه الغيطاني جيداً. من هنا نشعر بهذا الإهتمام الكبير بالزمن في هذا العمل الذي يطرح مسألة صوفية على هذا النحو كمسألة العدم، في القمة، حيث الصيغة الكاملة للكينونة التي تسمح بإلغاء "الأنا" نفسها. لذا ثمة تسليم في "متون الأهرام" بأن "الوجود في الفناء، والعكس صحيح"،

وهو مفهوم تختتم به الرواية، ويتكرر ثلاث مرات مما يتيح لنا إمكانية تقديم وجه مادي آخر للتفسير: الأهرامات الثلاثة، مركز أحداث الرواية. يطرح هذا العمل الأدبي علاقة الإنسان بالمكان، باتخاذ الزمن خلفيةً سحريةً، إذ أن البداية لحظة ما تضم المكان والزمان. وهكذا يسعى المؤلف لبناء وعي واحساس بالفن والحكمة في مواجهة الأسرار العظيمة للحضارة الفرعونية.

وعندما يستبد التعب بالرحالة المغربي يجلس مولياً ظهره للمسجد، مسدداً بصره صوب الغرب، نحو الأهرامات، بانتظار أن يصل أحد ما، حاملاً المخطوط المنتظر الذي سيفك له أسرار ذلك البناء الغامض. إنهما قمتان لصرحين معماريين ينتميان إلى ثقافتين محليتين: منارة الأزهر وقمة الأهرامات، موظفتان قطرياً لتنقلا الإحساس بالقلق، هاجس الإنسان إزاء الزمن. والرحالة يفد من إقليم لا يعوزه السحر والغموض، هو وادي زم، غربي المغرب. فأهل ذلك الوادي وهبوا القدرة على "النفاذ إلى المجهول"، مما سيسهل عليه مهمته وهو يتصدى لأهرامات مصر الملغزة، إذ وصل إلى القاهرة بحثاً عن لغزها الأعظم الهاجع في تلك القبور الملكية.

ولابد لنا هنا من أن نؤكد أن إختيار هذين الأثرين، الأهرامات والأزهر، في تناول موضوع له مثل هذه القيمة الجوهرية كالزمن- وهو أحد محاور هذا العمل الأدبي- لم يكن من قبيل المصادفة فالكاتب يعرف ذلك بالتجربة، وهو واعٍ للخصوصية التي تمتلكها العمارة الإسلامية في مصر، نظراً للتأثير الذي تمارسه عليها العمارة الفرعونية. وقد أبرز

الغيطاني هذه الخصوصية في كتابه "قاهريات مملوكية" آنف الذكر. كما أن هذا الكاتب يضمنّ المتن الأول من الرواية عبارات مشحونة بالمعاني مما يجعلها تقترب دلالياً من الأقوال المأثورة العربية، وأحياناً يحملها نفساً قرآنياً، مستلهماً في ذلك التراث الصوفي والحكمة الشعبية. ثم إن عنوانات المتون، الفصول، نفسها تعكس مفهومات وثيقة الصلة بالصوفية. كما أن للفكر الفلسفي حضوراً نافذاً في هذا العمل مما حدا بالبعض على ربطه بفكر الشيخ الأكبر إبن عربي وهو أمر يستلزم دراسة أكثر عمقاً وشموليةً.

في هذا السياق لنا أن ننوه بأن عبارة "الأمر نسبي" تعود إلى هذا الفيلسوف الأندلسي، وهي واحدة من تلك العبارات التي رصع بها جمال الغيطاني نسيج المتن الأول والتي تقودنا إلى التفكير في أنه إنما إستخدمها مقتفياً في ذلك أثر الكتابات الهيروغليفية التي زينت جدران الأهرامات والتي تواصل بث سحرها لنا وعظمتها.

حري بالتوكيد أن الغيطاني واحد من الأدباء الرواد الذين إستلهموا الفكر الصوفي وافادوا منه في سياق إهتمامهم وانشغالهم بالتراث الثقافي العربي وهو ما يتضح جلياً في هذا العمل.

ومن جانب آخر يدرج الغيطاني في العمل مقاطع من سيرته الذاتية، ولنا أن نهتدي إلى ذلك في المتن الأول عندما يصور لنا المؤلف-الرواي مشهد الشيخ تهامي الذي يبيع الكتب القديمة على رصيف جامع الأزهر. فنحن الذين عرفنا الكاتب نعلم جميعاً أن أول كتاب إحتازه إبتاعته له أمه

من ذلك المكان الذي سيتردد إليه لاحقاً للهدف نفسه: إقتناء الكتب القديمة. وستمنحه قراءة تلك الكتب خصوصية معينة، نستشف من خلالها ذلك النفس الصوفي الذي ينفتح على آفاق سحرية والذي يعين على خلق أجواء تصويرية، مجازية، تتجاوز المحسوس، لتقيم عالماً من الإشارات ينأى بها عن المباشرة.

إن هذا المظهر الثرّ من الثقافة العربية ومن تراثها الثقافي كان مهملاً عن عمد قبل الغيطاني إن لم نقل إنه كان مزدرى، وكان هناك ما يشبه الفراغ فيما يتعلق بالأشكال السردية في الأدب العربي المعاصر وفي تلك الموروثة، على الرغم من ثراء هذه الأخيرة في الشكل والمضمون والأسلوب. الأمر الذي أفاد منه هذا الروائي مما منحه شخصية أدبية مميزة، ومن ثم أسلوباً وتجربةً أدبية ولغوية خاصة، راحت تتنوع من عمل إلى آخر. من هنا فإن كل رواية يضعها تمثل عالماً مختلفاً في إطار نتاجه الأدبي. إنه كاتب في حالة بحث دائم عن خصوصية معينة له بين أقرانه. مع ذلك لم يتحدد الغيطاني في مساره الأدبي بالموروث المحلي، بل إنه إنفتح على رموز الأدب العالمي مثل ديستوفسكي وثيربانتيس وهرمان ملفيل وأغاثا كريستي وفيكتور هوغو من بين آخرين كثيرين. إلى جانب هذا العامل يمكننا أن نضيف ما لولادته في واحدة من قرى مصر من أثر وإنتقاله إلى أحد أحياء القاهرة الإسلامية بجوار جامع الأزهر وحي الحسين ذائع الصيت، حيث إبتاع كتبه الأولى وتسنى له أن يقرأ أعمال الكتاب القدامى مثل إبن إياس والجاحظ إضافة إلى المؤلفات التراثية في علم التنجيم وتفسير الأحلام. وكذلك الحكايات الشعبية القادمة من الريف

والمدينة، وما لكل ذلك من أثر في تشكيل مادته الخام وأداته الروائية. وفي تمسكه بما هو أصيل مما يجعله يمتنع عن الحديث مع أهله بلهجة أهل القاهرة، مؤثراً التعبير عن نفسه بلهجة المنشأ الصيعيدية التي تحمله إلى الجذور.

كما أن الحي القاهري الذي أمضى فيه الغيطاني طفولته وشبابه ترك في أعماقه طابعه وبصماته التي لا تنمحي مما إنعكس بوضوح في أعماله، ومن بينها الرواية التي نتحدث عنها والتي تزخر بعناصر السيرة الذاتية المرتبطة بهذا المكان، خصوصاً في الصفحات الأولى حتى لتنحل في شخصية الرحالة المغربي. إذ ليس عسيراً على من يعرف سيرة الغيطاني الذاتية أن يتعرف هذه العناصر والمواقع والآثار التي تشكل جزءاً من حياته في تلك المنطقة التي يكن لها مشاعر الحب والحنين والتبجيل. إلا أن هذا لا يدفعه إلى الوقوع في إغراء النقل الحرفي المباشر، ذلك أنه يلجأ إلى التصويرية التي تبرز في هذه الرواية، إلى جانب التناص والذاكرة الجماعية للشعب والأمة. كما يمكن لنا أن نلحظ في فنه الروائي تحريضاً للوعي الجماعي يهدف إلى تسليط الضوء على مقاطع من الماضي وفحصها من خلال تجربته في قراءة الكتب القديمة التي تنطوي على قيمة نوعية في الثقافة العربية.

والكاتب يبيح لنفسه حرية تناول الهوية العربية والتفكير فيها وتأملها، من خلال الوعي الجماعي للمثقفين المصريين إزاء ماضي بلادهم وحاضرها، هوية تتجسد روحها في أحجار الأهرامات الفذة وفي مخيلة ناسها، دون أن ينسى الإستعانة بأهل هذه الأمكنة الحافلة بالآثار وهم أناس

بسطاء إلا أنهم مزودون بخلفية هائلة من الأساطير والحكايات المروية شفاهاً التي إنتقلت إليهم من جيل إلى آخر منذ فجر التاريخ. نحن في هذه الرواية إزاء كتابة جديدة تمثل إتجاهاً جديداً في مسار الكاتب الأدبي. وتكمن دلالة هذا العمل في نقطتين: البداية والنهاية، وما بين هاتين النقطتين تدور النصوص الحكائية حول محور واحد هو أهرامات الجيزة. فالقمة هي الفراغ، العدم، هي تلك النقطة التي ينتهي عندها البناء العملاق والزمن الذي يجري ليؤشر بداية اللامرئي، دون أن ندرك أي منهما يحدد الآخر "ينفد المحسوس القادم من أسفل، ويبدأ اللانهائي.... تبدأ النقطة غير المدركة بالنظر، ما هي إلا البداية والنهاية معاً لما يعسر على الإفهام إدراكه أو إستيعابه".

وإذا كان أجداده، المصريون القدامى، قد إنشغلوا كثيراً بالخلود لدحر العدم، الفناء، من خلال المادة، ممثلة بهذه القبور الهائلة، الأهرامات التي تقاوم الزمن، فإن الغيطاني يلجأ إلى الإبداع الأدبي، إلى الكتابة التي تعني بالنسبة إليه فعلاً يوازي تلبية الغريزة الجنسية. بهذا النحو، فإن الكتابة تمثل حاجة يجد نفسه من خلالها، إذ يشعر بتحقيق ذاته في مواجهة هذا التحدي الفريد: الزمن.

وبهذا الخصوص يؤكد الغيطاني نفسه:" إكتشفت أنني كاتب في سن مبكرة مثل معظم أبناء جيلي، فاتجاهنا إلى الكتابة كان غريزياً، تلقائياً، وشققنا طريقنا بأنفسنا، والفعل الغريزي إذا لم تكتمل دورته يصاب الإنسان بأمراض جسدية، فالكتابة عندي شكل من أشكال التوازن مع الحياة" (٧). ينطلق المؤلف في عمله هذا من لغة خاصة تجيد مزاوجة التاريخي

والصوفي في القمة الإبداعية الرمزية للبناء المادي المجرد. إلا أن لغته الخاصة تضيع في لغة أخرى هي لغة المؤرخين، كما في مقاطع معينة من الرواية، على وجه التحديد حينما يتصدى لموضوع سعي الخليفة العباسي لفتح نفق، حسبما يروي المؤرخ القديم إبن إياس، بحثاً عن الحكمة، إذ سمع ذلك الخليفة بوجود خرائط فريدة في علم التنجيم، وأنواع من زجاج لا ينكسر ومعادن نقية داخل الأهرامات.

مواقف مثل هذه التي يوردها الكاتب، إضافة إلى مشهد الشبان السبعة والعاشقين اللذين إستحالا رماداً عندما جرؤا على إقتراف فعل الحب داخل الهرم، تطلق إسار مخيلة القارئ مما يضفي على الرواية أجواءً من الواقعية السحرية إذ يمتزج الواقعي بالغرائبي من خلال إستخدام التراث الأدبي الشفاهي.

وهكذا نجد أن التفحم سيكون عقاب من يجرؤ على إطلاق رغباته الجسدية داخل الأبنية المقدسة. وهذا بدوره يطرح فكرة تدنيس المقدسات، من خلال تصوير فعل الجنس والأهرام كقطبين متضادين، وهما يمثلان حلقتين، رمزين للحياة وللعالم الآخر، على الرغم من أن الكاتب لا يفسح المجال لكثير من التأويلات بهذا المعنى. وقد يكمن سبب ذلك في أن الجنس في الثقافة العربية لا يزال بمثابة "تابو"!.

إن البحث عن أسرار الأهرامات والزمن، عن ألغازها، هو الخيط الذي ينتظم متون الرواية، من خلال تجاور أحداث وشخصيات مستقلة يربط بينها الصرح الذي له وظيفة المحور في العمل: الهرم. فالأهرامات تكشل

عمود الرواية الفقري ونسغها في آن واحد، بيد أن هذا لا يحول دون إحتفاظ كل متن أو فصل بمضمونه المرتبط بعضه ببعض. وفي هذه الرواية نجد أنفسنا إزاء مواقف غير إعتيادية، صوفية وميتافيزيقية، إذ يغيب الكاتب عن عمد المجتمع والتاريخ مخلياً المجال للأبدية، الخلود الذي يمثل عنصراً جوهرياً في علاقة الإنسان في مصر برموز الزمان والمكان. وبهذا يقيم علاقة ما بين روح البلد، ممثلاً بآثاره- الأهرامات في هذه الحالة- وبين مخيلة المثقف الفنية، وريث هذه الحضارة، بأساطيرها وحكمتها المكتسبة على مر التاريخ وعلى مدى الزمن، والهندسة الشعرية لهذا الأثر، لهذا المكان.

والغيطاني، ينسج ببراعة مصمم سجاد فارسي- وقد زاول هذه المهنة في صباه- خيوط التراث والرموز الصوفية من خلال هذا البناء الدلالي، مطلق الحضور، والموحي بهذا السياق. وبهذا المعنى لابد أن نقول إن إختيار كلمة "متن" لم يكن إعتباطياً البتة، أو وليد صدفة، ذلك أنها وثيقة الصلة بالتراث.

من كل هذا أراد الكاتب أن يخلق لغة ذات نفس تقليدي وأن يمنحها أصالة لغوية سردية، وهو ما نلمسه في هذا العمل وإن على نحو أقل مما نجده في أعماله الأخرى. الأمر الذي جعل مهمة ترجمة الكتاب تغدو عسيرة إلى حد ما، دون أن يعني هذا إتخاذ مقولة "الترجمة خيانة" أو "الأدب الجيد لا يترجم" ذريعة في هذا الصدد. فالحق أننا نعتقد بعدم دقة كليهما. لا يفوتنا هنا أن نذكر أن أسلوب الغيطاني الرشيق، المتأثر بلا ريب بتجربته الطويلة في الكتابة كصحفي، منح الرواية إيقاعاً وشكلاً مختلفين.

فهما مفعمان بالسلاسة، دونما إغراق في تفاصيل الحياة اليومية، وعلى نحو يتيح المجال لطرح الأسئلة بخصوص العلاقة الملغزة القائمة بين الإنسان والزمن، وهي معادلة ثابتة في النتاج الأدبي للروائي لهذا الكاتب. يضاف إلى ذلك أن واحدة من فضائل الغيطاني في الكتابة هي عدم وقوعه في غواية تكرار الأسلوب اللغوي القديم عندما يجعل مركز الحدث في عمله الأدبي منتمياً إلى زمن تاريخي، والفضل في ذلك يعود بلا شك إلى أنه يستلهم التاريخ دون أن يسقط في حرفيته.

بقي أن نقول إن هذا العمل هو تأويل آخر لأهرامات مصر الشهيرة، ومحاولة لإيجاد العلاقة ما بين هذا الصرح والوجد الصوفي. ولبحث قدر الإنسان في مسيرته الأكيدة نحو القمة، نحو النقطة الأخرى: الفناء. الأمر الذي يطرح بدوره السؤال التالي: ترى إلى أين يمضي بنا هذا الفناء؟!.

حوار فى الأدب والصحافة والثقافة

جمال الغيطاني: الإنسانية كلها ملكي وأود أن أكتب رواية مثل «موبي ديك»

«حياتي كانت متنوعة وغنية، شخص يرسم سجاداً وبعدها يمسك ويصبح رفيقاً ويعذب ثم يخرج ويصبح مراسلاً حربياً، وبعدها يعمل محرراً ثقافياً، وخلال مسيرتي الطويلة مع الكتابة لم تكن قضيتي منافسة زملائي، قضيتي كانت وما زالت منافسة التراث الإنساني كله»... هكذا يلخص الروائي المصري جمال الغيطاني (١٩٤٥) مشوار حياته عقب مسيرة طويلة مع الكتابة الإبداعية كانت محصلتها أكثر من ٥٠ كتاباً أبرزها «الزيني بركات»، «شطح المدنية»، «التجليات»، «دفاتر التدوين»، و «حكايات هائمة» الصادر أخيراً عن دار نهضة مصر. هنا حوار معه.

> بعد مسيرة إبداعية جاوزت النصف قرن، ماذا تعني بالنسبة اليك ممارسة فعل الكتابة؟ وهل أختلف الأمر الآن عنه في البدايات؟

– الجوهر لم يختلف، ربما الإطار الذي تطرأ عليه اختلاقات وفق مقتضيات العمر. الكتابة بالنسبة لي مثل النبض، مثل التنفس، أمارسها مثل الغريزة، فهي ليست فعلاً مكتسباً، وأزعم أنني كنت أمارس فعل الكتابة، قبل تعلمها من خلال ممارسة فعل الحكي، لم أتوقف عن الكتابة يوماً واحداً حتى وأنا داخل المعتقل في ١٩٦٦، رغم الظروف القاسية والقيود الشديدة، وأذكر أنني كتبت ثلاث قصص على ورق «البفرا» السجائر... وأثناء فترات

التحقيق، أو فترات التعذيب كما كان يطلق عليها، وكانت تجري في سجن «القلعة» كنت أحياناً لا أجد ما أكتب عليه فأضطر للكتابة بالمخيلة.

> فترات التكوين كيف ساهمت في إبراز شخصية الحكاء لديك؟

– ولدت في أسرة فقيرة، الأب لم يأخذ فرصة تعليم نتيجة الظروف، انا مولع بالحكي منذ الصغر، أحكي قصصاً لجدتي، ولأفراد أسرتي، من الأشياء التي لا أنساها أبداً سحارة كبيرة كانت موجودة في بيتنا منذ الصغر وكانت تحوي داخلها مخطوطات جدي لأمي، وكان يعمل شيخ القرية وإمام الجامع، من بين المخطوطات التي كانت داخل السحارة مخطوط للقاضي عياض، وأخرى لمحيي الدين بن عربي، فهذا النوع من المخطوطات يمتلئ به الصعيد، بدأت القراءة وعمري ٧ سنوات، وكانت أول رواية قرأتها «البؤساء» لفيكتور هوجو، بينما رغبتي في الكتابة ظهرت وأنا في عمر العاشرة، في عام ١٩٥٩ كتبت أول قصة وعنوانها «نهاية السكير» وكنت وقتها في عمر الخامسة عشرة ودخلت بها مسابقة نادي القصة، وكانت أول قصة تنشر لي في تموز (يوليو) ١٩٦٣ في «الأديب اللبنانية».

> عملك الصادر أخيراً «حكايات هائمة» كيف تصنفه؟

– منذ أن بدأت وأنا لديّ هاجس بأن أخط شيئاً لم يُكتَب مثله ولم أقرأه من قبل، كنت أقول ذلك لنفسي منذ كنت في العاشرة، وأظن أنني احتجت إلى أن أعمل ٦٠ عاماً كي أكتب «حكايات هائمة» التي تخلصت فيها من كل الأشكال المسبقة، وتحررت من كل القيود ومارست فيها حرية وجرأة كنت أتردد في ممارستها من قبل. فلم تعد لديّ رواية بالشكل الثابت.

> هل يمكن النظر إليها باعتبارها سيرة أو بعضاً من سيرة؟

- «حكايات هائمة» فيها خدعة، فكثير مما أحكيه على لساني لم يحصل لكني أوهم به، أو يكون له أساس في الواقع وأنا أبني عليه، مشروع الحكايات بدأت في تدوين ملاحظاته منذ أكثر من ٣٠ سنة، هناك أعمال كبيرة قرأتها وأعجبت بها وتمنيت لو أني كتبت مثل: رواية «موبي ديك» لهيرمان ملفيل التي أعتبرها نموذجاً أمثل، وأريد كتابة رواية مثلها وهذا بدوره يشكل حافزاً... خلال مسيرتي الطويلة مع الكتابة لم تكن قضيتي منافسة زملائي قضيتي كانت وما زالت منافسة التراث الإنساني كله.

> التمركز حول الذات يبدو واضحاً في كل ما تكتب؟

- «لا تبحث عن مركز العالم أنت المركز» مقولة أنطلق منها دائماً.. ذاتي موجودة في كل ما أكتب إلى أن تمركزت حولها في الدفاتر وحكايات هائمة، حالياً أنا أنافس نفسي، وقد انقطعت عن القراءات الأخرى، إلا الأدب الجديد، عقلي مليء بالعمل، وما يشغلني حالياً هذان المشروعان، إلى جانب جزء ثالث من «حكايات المؤسسة».

> هل انشغالك بالسفر والترحال كما ظهر في التجليات نابع من انشغالك بفكرة الزمن؟

- هناك مقولة لابن عربي: «الإنسان يسافر مع الأنفاس، من نفس إلى نفس، ومن دقة قلب إلى أخرى» نحن في حالة سفر دائم، والسفر نوعان، الأول سفر في المكان والآخر سفر في الذات، وأظن أنني الآن في

مرحلة السفر في الذات، وهذه النقطة تتضح في «هاتف المغيب»، فجمال بن عبدالله يلتقي أحمد بن عبدالله، وأحدهما مقعد لم يسافر قط، لكنه يصل إلى النتائج نفسها التي ضيّع الثاني عمره في السفر من أجل أن يصل اليها، فالسفر في الذات هو نوع من السفر في المكان وفكرة السفر فكرة أساسية في التصوّف، التجليات كلها ترحال، و «هاتف المغيب» أيضاً، يبدو أنه مع اقتراب الإنسان من نهاية العمر يكثر سفره إلى داخل ذاته.

> الوعي بلحظة الكتابة وما تمثله؟

– أنا من الكتّاب الذين لا ينتظرون لحظة الكتابة مثل كثير من الأدباء، صديقي الشاعر الكبير عبدالرحمن الأبنودي كان يحكي لي أنه قد ينتظر فترات طويلة والشعر لا يأتيه، ومنذ أن قرأت عبارة الشاعر فؤاد حداد «وكأن الحياة ذكرى» وأنا مشغول بهذا الهاجس فالحياة فعلاً كلها ذكرى، والكتابة فعل مضاد للنسيان، أعمل منذ أن كان عمري ١٦ سنة والنهار بالنسبة إلي مخصص للعمل لتوفير المعاش حتى بعد اشتغالي كصحافي محترف لأن الكتابة الإبداعية لا توفر دخلاً، لا أملك ترف الانتظار أو تأجيل مشروع كتابة للحظة مقبلة، فمن يدري إن كنت سأحيا حتى هذه اللحظة.

> لكن، الكتابة الإبداعية قد تختلف عن غيرها، ما يعني صعوبة إخضاعها لنظام محدد؟

– أنا أخضعت لحظة الكتابة لظروفي، فأنا أعمل بمنطق من ليس لديه وقت، ومما أحمد الله عليه وأنا في السبعين من العمر أن طاقتي

ورغبتي في الكتابة أصبحت أكثر صقلاً، وأن لديّ مشاريع وأفكاراً تكفني للاشتغال عليها فترة ٢٠ عاماً مقبلة.

> تقول: منهجي نابع مني لم يضع لي أحد منهجاً من الخارج. كيف تتعاطى مع قضية التجريب في الأدب؟

- لست من النوع الذي يستكين لنموذج مسبق أو قوالب جاهزة. «باترون» مثلاً. هناك قول في المدرسة الكلاسيكية في النقد يرى أنه يجب على الروائي أن يكون صوته خافتاً، لست مقتنعاً بهذه الرؤية كيف يكون صوتي خافتاً وأنا موجود طوال العمل، أنا الذي يكتب، أيضاً لست من أنصار القول إن «زنيب» هي أول رواية عربية، وماذا عن الألف عام السابقة؟ اتبعت المدرسة العربية القديمة التي تتمثل في كتب التراث مثل: كتاب الحيوان للجاحظ حيث توجد أفق عديدة للحركة أكثر بكثير من الأشكال الكلاسيكية للرواية الأوروبية التي تأسست عليها الرواية العربية.

> الأدب بوصفه تاريخاً موازياً، إلى أي درجة يمكن أن يعوّل عليه؟

- في بعض أشكاله، لكن في ما هو أكثر تعقيداً، أو ما أسميه وحدة التجربة الإنسانية، هناك نصوص إنسانية قديمة لكنها تعبر عن الحاضر، ما يعني أن ثمة قاسماً مشتركاً موجوداً، هناك حقائق إنسانية يقف الإنسان أمامها حائراً لا يكف عن طرح الأسئلة، هنا يمكن اعتبار الأدب معبّراً عن الحقائق العميقة والدفينة في الإنسانية وبالتالي يمكن استخدامه وبخاصة الأدب الواقعي في فهم الأبعاد الخفية في عصر ما، لكن، هذا دور لا يقتصر

على الأدب وحده، هناك أنواع أخرى من الكتابة تقوم به، مثل الحوليات، والتراجم الصوفية التي تعطينا بعداً غير تقليدي لفهم التاريخ.

> اللغة في «الزيني بركات» تتماهى مع أساليب السرد في الخطاب التراثي القديم وبخاصة عند ابن إياس، هل اتكأت عليها لدوافع فنية، أم أنه الشغف بالتراث؟

- علاقتي بالتراث طويلة وأكثر ما استوقفني فيها ما لاحظته من اندثار بعض أساليب السرد في الخطاب التراثي العربي، هناك كتاب للراحل رشاد رشدي عن القصة القصيرة وضع فيه تعريفاً للقصة متسقاً مع التراث الأوروبي. تشيخوف، او موباسان، دهشت حين قرأتهما لكني شعرت أن هذه التقنيات لا تعبر عما في داخلي، كنت أشعر أني في حاجة إلى أساليب تحقق لي حرية أكبر، في ظل الرقابة الصارمة على الأدب آنذاك.

رواية الزيني بركات نشرت أول مرة في روز اليوسف باعتبارها مخطوطاً، أحببت لغة الزيني بركات لما تحتويه من جماليات بلاغية تجمع بين الفصحى والعامية تمثل ذورة البلاغة المصرية، ولأنها مكنتني من الوصول إلى مناطق في السرد يصعب الوصول اليها باستخدام السرد العادي، لكنها أيضاً استخدمت كقناع يوهم بأن النص قديم.

> تتحدث عن حداثة عربية تتجاوز حداثة الغرب، كيف؟

- لا أتعامل مع الحداثة الغربية باعتبارها المتفوقة وباعتباري الأقل، وجدت في القدماء حداثة أكثر من الموجودة لدى الغرب والمعاصرين مثل: أبو حيان التوحيدي الذي بهرني، والذي أجد في كتاباته حداثة متجاوزة

حداثة الغرب، ومن عجائب الثقافة العربية أنها أوقفت طباعة كتب التوحيدي ومحيي الدين بن عربي وننتظر صدور دراسات عنهم من عاصمة غير عربية هي طهران، حيث يطبع تراث ابن سينا والمعتزلة ومن عجائبها أيضاً أنها تتعامل مع عباقرة مثل المتنبي وأبي العلاء والجاحظ باعتبارهم زنادقة ومارقين ومشكوكاً في أمرهم. الإنسانية كلها ملكي، والخصوصية لا تعني إلغاء الآخر، لكن هناك مركزاً أنطلق منه هو الثقافة العربية.

> مثقفو الستينات كانت لديهم أحلام كبرى، عبّرت عنها ثورة ٢٥ تموز ومثقّفو ثورة ٢٥ كانون الثاني (يناير) أيضاً... هل ثمة قواسم مشتركة؟

– مثقّفو الستينات معظمهم مارسوا العمل السياسي السرّي، لأن العامل السياسي العام وقتها كان مشروطاً بشروط السلطة، كنا أعضاء في تنظيمات يسارية صغيرة، لكن سرعان ما اكتشفنا هشاشتها فتركناها، في الستينات كنا نحارب من أجل تحقيق مبادئ كبرى مثل: تحرير الإنسان، وبناء وطن مستقل، الآن نحارب في البديهيات، نحارب من أجل الحفاظ على البنية، من هنا انحيازي لفكرة الدولة، فالدولة في مصر غيرها في أي بنيان في العالم، الدولة تعني الكيان.

عقب هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، الجماهير التي خرجت يوم ٩ تموز تطالب عبدالناصر بالبقاء وتحمّل المسؤولية، لم يحرّكها حزب أو

تنظيم، الذي حرّكها خاصيّة مصريّة حاولت فهمها من خلال دراسة تاريخ المصريين، خاصيّة يعبر عنها القول الفرعوني القديم: «الكل في واحد».

وأثناء ثورة ١٩١٩ لم تكن هناك وسائل اتصال حديثة أو إنترنت ورغم ذلك فأنت تجدين حدثاً يقع في أسوان يمتد إلى أرجاء مصر كلها، وكأن هناك خيطاً سرياً يربط الناس، طبعاً هذا أمر له إيجابياته وأخطاره لأن عدم التنظيم يؤدي إلى دخول قوى منظمة تعمل ضد الشعب وضد حركة التاريخ وهذا ما حصل في ٢٥ يناير، التي استغلت براءتها من قبل قوى.

منذ ٢٥ كانون الثاني وحتى الآن ونحن نحارب من أجل بقاء الدولة نحارب في البديهيات، لكن، هذا لا يعطي عذراً للحاكم لأن يتقاعس، لأنه بقدر تحقيقه لمصلحة الغالبية بقدر مساندته للدولة، لأنه إذا بلغ اليأس مبلغه بما يحرّك المصريين مرة أخرى فإن ٣٠ /٦ قد لا تتكرّر.

> علاقة المثقف بالسلطة كانت وما زالت شائكة، في رأيك لماذا؟

– لأن المثقف يحتاج للسلطة في دولة تهيمن على كل شيء، وفي الوقت نفسه يريد أن يحافظ على استقلاليته، طوال ١٧ عاماً فترة رئاستي جريدة أخبار الأدب، ورغم أنها قومية إلا أنها كانت أقوى جريدة ثقافية معارضة، وفي أدبي كنت ناقداً عنيفاً، في روايات مثل: «حكايات المؤسسة»، و «رسالة البصائر» وفي عام ١٩٧٤ فترة الانفتاح الساداتي كتبت رواية عنوانها «ذكر ما جرى» تخيّلت فيها بيع مصر في مزاد علني وقد نشرت في مجلة «الموقف العربي» في كانون الثاني ١٩٧٥ وحتى عام

١٩٨٥ كان ممنوعاً ذكر اسمي كأديب في الجريدة التي أعمل فيها أخبار اليوم.

> كيف تفسّرالنهضة الثقافيّة التي شهدتها الستينات، رغم القهر البوليسي؟

- عبد الناصر كان واعياً بقيمة مصر الثقافية رغم القهر البوليسي الذي مارسه نظامه على المثقفين، كانت هناك نهضة ثقافية حقيقية، مصر لها خصوصية وأحياناً يلعب العنصر الشخصي دوراً مهماً عندما يكون هناك شخص مثقف ويسند إليه دور مثل ثروت عكاشة الذي ما زلنا نعيش على إنجازه الثقافي، محمد حسنين هيكل أيضاً العقل المفكر لعبد لناصر لعب دوراً مهماً فقد نشرت أعمال معارضة للنظام وبقوة تحت حمايته، وجود هيكل في «الأهرام» مكّن نجيب محفوظ من نشر أعمال مثل: «اللص والكلاب» و «ميرامار» و «ثرثرة فوق النيل» التي كنا نقرأها من قبل باعتبارها منشورات... حيوية الشعب المصري وقوة الحركة الثقافيّة التي يمثّلها جيلي هي التي أوجدت دوراً ثقافياً لمصر فترة الستينات.

> حالة الزخم الروائي التي تشهدها الساحة الأدبية في السنوات الأخيرة هل يواكبها حركة نقد موازية؟

- للأسف النقد غائب والموجود منه يحوي قدراً كبيراً من المجاملات، ما أفقده صدقيته لدى الجمهور، هناك كتابات جيدة تظهر لكنها تائهة لأن الحركة الأدبية في مصر أصبحت تسير على ساق واحدة. في الماضي عندما كتب لويس عوض عن الشاعر أمل دنقل في الأهرام تمّ

تعميده، وعندما كتب عني نقّاد كبار مثل: محمود العالم وعلي الراعي ولطيفة الزيات حصلت على الختم. لا توجد حركة نقدية علمية تواكب حالة الزخم الروائي الموجود حالياً مثلما كان في الماضي عندما صدرت جاليري ٦٨ وعندما صدرت «فصول» لتأسيس حركة نقدية حقيقية لكن، الأمل قد يكون الآن في إصدارات مثل: أخبار الأدب وعالم الكتاب، لأنهما يقدّمان رؤى جديدة.

> مسألة التجديد والجدل الدائر حول مراجعة كتب التراث، مهمة دينية أم ثقافية؟

– مهمة ثقافيّة بالدرجة الأولى، أنت الآن لا يمكنك أن تذهب إلى شخص وتدعوه إلى الإسلام في ظل ما نراه الآن من عمليات ذبح وثيب وعودة لتجارة الرقيق، مطلوب مراجعة جريئة علمية للأسس التي تبرّر هذه الأفعال، مراجعة لكتب التراث وبخاصة البخاري ومسلم، هذه ليست مهمة الأزهر وحده، لا بد من تعاون بين الأزهر والمؤسسة الثقافية، إذا أردنا للإسلام أن يستمر لابد أن نعمل على إدخاله العصر بالتخلص من ميراث قديم غير مقدّس، لأنه في نهاية الأمر مجرد اجتهاد بشر، فكرة التجديد فكرة أصيلة لدى المصريين، ومسألة التجديد التي طرحها الرئيس السيسي بجرأة وشجاعة مسألة حياة أو موت المهم كيف يتم تنفيذها.

> أين تكمن أزمة المؤسسة الثقافية في مصر؟

– تكمن في العقلية القائمة عليها والتي تديرها، وللأسف كان بينهم مثقفون مستنيرون وقع عليهم الاختيار لإدارة المؤسسة الثقافية بعد ثورة

٢٥ يناير، أبزرهم جابر عصفور الذي التف حوله المثقفون، وكنت أولهم، لكني سرعان ما انسحبت عندما بدأت أرى ضرره، وعندما تأكدت أنه أسير تجربة معينة، وأنه جاء إلى الوزارة حاملاً معه عقلية فاروق حسني، وأذكر أنني عقب توليه الوزارة، وخلال اجتماع للمجلس الأعلى للثقافة قدّمت برنامجاً ثقافياً متكاملاً يتضمن ١٧ اقتراحاً لن تكلّف الوزارة شيئاً مثل: إعادة فتح المركز الثقافي في باريس، ومكتبة البحر الأعظم التي تم حرقها أثناء ثورة كانون الثاني لكنه لم يهتم. وبالمناسبة عصفور لم يخرج من الوزارة بسبب هجومه على الأزهر كما يروج أنصاره.

> لماذا خرج إذاً؟

- فترة التسعينات انتشرت ظاهرة الهجوم على الأزهر، حتى تثبت أنك مثقّف تنويري، لكن عندما يأتي الهجوم في مرحلة تعمل فيها جماعة الإخوان وبكل قوة على إسقاط مؤسسة الأزهر حتى تكون المرجعية في الإسلام حكراً عليهم، أو حكراً على بيت المقدس، هنا يصبح الهجوم على الأزهر لا يخدم سوى الإرهاب.

عصفور خرج من الوزارة لأسباب هو يعرفها جيداً، في الماضي كان من الممكن بقاء الوزير في منصبه ٢٥ سنة أو أكثر، حالياً نحن لا نتحمّل وجود وزير فاشل، صاحب أفق ضيق في الاختيارات.

> وكيف تقيّم القائم على رأس المؤسسة الثقافية الآن؟

- عبد الواحد النبوي أفضل من كثيرين، فهو يقف على مسافة واحدة من جميع الأطراف في الحياة الثقافية، وقد جاء إلى الوزارة وليست

لديه خصومة أو حزازات من أي نوع، وفي رأيي هذا أمر مفيد، وبما أنه تم اختياره فمساندته واجبة، لكن لابد أن تظل الدعوة إلى إعادة النظر في سياسة وزارة الثقافة بالكامل قائمة، فإن استطاع الوزير الحالي عمل هذا «فأهلا وسهلاً به» وإن لم يستطع فليأتِ غيره.

> برأيك ما الإضافة التي قدمها مؤتمر القاهرة للرواية العربية الأخير؟

– مؤتمرات الرواية العربية التي تعقد حالياً ليست مؤتمرات بالمعنى العلمي، هي مجرد مهرجانات، الإيجابية الوحيدة لها أن الناس تتقابل، لا بأس لكن إن اقتصر الحدث على مجرد إلتقاء الأدباء ليكن المنظّم له وزارة السياحة وليس الثقافة.

أنا مع عمل مؤتمر علمي للرواية، على غرار مؤتمر الرواية في المغرب (فاس) ١٩٧٩. الثقافة المصرية على مدى ٧٠ عاماً فائتة لم يعقد فيها سوى ثلاثة مؤتمرات فقط هي: مؤتمر تجديد ذكرى أبي العلاء، ومؤتمر المتنبي ١٩٤٨، ومؤتمر الموسيقى العربية ١٩٣٣. والسؤال هنا ما هو البحث القيّم الذي خرج به مؤتمر الرواية الأخير، والذي يمكن أن يغيّر مسار الرواية العربية؟

الغيطانى وعبد الناصر

جمال الغيطاني: ليت جمال عبد الناصر قرأ نجيب محفوظ لتجنب الكثير من الأخطاء

عرف جمال الغيطاني بمشروعه الروائي الجريء الذي استلهم فيه التراث المصري ليخلق عالما روائيا معاصرا يعد اليوم من أكثر التجارب الروائية نضجا في المنطقة العربية. وبالإضافة إلى جهده الروائي، عمل الغيطاني في الصحافة الأدبية، إذ ترأس تحرير جريدة «أخبار الأدب» على مدار ١٧ سنة، ونجحت الجريدة في التحول إلى منبر ثقافي، مصريا وعربيا. ولكن هذا الانغمار في الحياة الإبداعية يمنع صاحب «أوراق شاب عاش منذ ألف عام»، و«الزيني بركات»، و«دفاتر التكوين» بأجزائه الثلاثة، وغيرها كثير، من المساهمة في الحياة السياسية والعامة، كما نرى في هذا الحوار معه، الذي يتناول شؤونا سياسية وظواهر وقضايا ثقافية كثيرة:

* لنبدأ من المشهد الحالي.. كيف تراه؟

– أنا متفائل بحذر، والحذر لإدراكي وجود إصرار دولي بمساندة عناصر محلية داخلية على إسقاط الدولة. وأنا لا أتكلم عن تغيير نظام، فلأول مرة في تاريخ مصر الحديث، وربما القديم أيضا، نتعرض لعملية إسقاط دولة، وليس تغيير نظام، فالأنظمة تأتي وتذهب، ومثال على ذلك ثورة يوليو (تموز) التي أسقطت نظاما، لكنها لم تدمر أجهزة الدولة، بل إن جمال عبد الناصر قام بإجراءات لتقوية الدولة، لكن في ثورة يناير (كانون

الثاني) مرت أحداث تكشفت حقيقتها في ما بعد، واتضح أن هناك تلاعبا في اتجاه هدم الدولة والشعب هو الذي قام بحماية الدولة. وكي نفهم ما نحن فيه الآن لا بد أن نستعرض الأمر من لحظة ثورة يناير التي شهدت خروجا حقيقيا للناس، لكن دخل على الخط عناصر مريبة لم تكن ظاهرة، وبعضهم ما زال مستمرا حتى الآن، كما أنه في الفترة السابقة على ثورة يناير مباشرة عادت وجوه من الخارج وظهرت فجأة، وكان أشهرهم محمد البرادعي، واتضح في ما بعد أنهم مرتبطون بخيوط لا تنتهي في مصر، وهذه الوجوه ما زالت مستمرة إلى الآن تحت اسم الليبرالية والديمقراطية، ومنهم أيضا الإخوان الذين ظهروا في ميدان التحرير، وفى موقعة الجمل، وفى الجمعة التي أطلق عليها «جمعة قندهار»، التي رفعوا فيها أعلام «القاعدة» السوداء انتهاء بتولي مرسى، ثم سقوط الإخوان في ثورة جديدة لا نستطيع أبدا أن نقول إن فيها عناصر مريبة، فقد قامت لظروف خاصة عندما اكتشف الشعب أنه يجرى جرفه لمنطقة بعيدة، فكانت ثورة شعب حقيقية انضم فيها الجيش إلى الناس، وأثبتت أن للشعب المصري دوره وكلمته للقضاء على مخطط كوني برعاية الولايات المتحدة، ولكن ما أراه الآن هو استمرار محاولات الإيقاع بالدولة المصرية، وأن الروح المصرية التي لمسناها في ٣٠ يونيو (حزيران) تقل تدريجيا وتتضاءل، وهذا ما أخشاه، لكن في الوقت نفسه هناك ما يطمئن ويتمثل في أن وعي الشعب المصري أعلى من بعض النخبة ممن يتاجرون بالشعارات الليبرالية والقومية.

* هل ترى هذه التوابع من أثر الربيع العربي؟

- هذه الكلمة لا أستريح لها فهي مصطلح مشبوه وملعوب به، كما أنها عبارة لم تخرج منا، والمسألة بدأت في تونس بينما كان الهدف مصريا على أساس أنها رمانة الميزان في المنطقة.

* إلى أي مدى ترى أهمية انخراط الأديب في الواقع السياسي؟ وكيف يوائم بين ذلك وبين متطلبات الكتابة الإبداعية، ومنها حاجته للاختلاء بنفسه؟

- الأديب لا يمكن أن ينفصل عن الواقع السياسي. وكان تشرشل في الحرب العالمية الثانية يدعو الأدباء إلى اجتماعاته ليستمع إليهم، لأن قراءة الأدب والاستماع إلى أصوات الأدباء يفيد في استشراف المستقبل. ولو كان عبد الناصر قرأ روايات نجيب محفوظ لكان حذرا من حدوث ما حدث في النكسة، فالأديب يرى بعين شاملة ورؤية بانورامية أوسع، أما السياسي فيركز على التفاصيل فقط. وأنا منذ بداياتي لا أنفصل عن الواقع وأعمالي تمزج بين الخيال والواقع في خطين متوازيين.

* لكنّ هناك كثيرا من أعمالك ومنها دفاتر التدوين تميل للانغماس أكثر في الذات.

- هناك أحداث وظروف تدفع الإنسان للانغماس في الذات وقد عشت هذه التجربة مع تقدمي في العمر رغبة في حماية نفسي، وإعادة لبناء الحياة بأقصى سرعة من خلال الذاكرة لإدراكي معنى قصر العمر والفناء. وكانت مرحلة دفاتر التدوين بأجزائها تنتمي إلى هذه الحالة.

* كيف تقيّم إبداعات ثورة يناير؟ وهل تتناسب مع ضخامة الأحداث؟

– بالعكس هناك حالة من الكتابة لم تكن موجودة في عصر الستينات الشهير بالزخم الإبداعي. لا شك أن فترة الستينات كان هناك إنتاج ضخم من الإبداعات المتنوعة في مختلف المجالات رغم حالة القمع التي كانت موجودة، ومع ذلك فأنا أرى أن هناك كتابات كثيرة، وأكثر من ذلك الوقت، ولكنها تحتاج لمن يقيمها، بمعنى أن الحركة الإبداعية تسير على قدم واحدة.

* أي أن هناك قصورا في النقد؟

– نعم، فلا توجد حركة نقدية ذات مصداقية، وتعتمد حركة الإبداع على الذائقة، هناك متغيرات عصرية تتمثل في أن الشباب الجديد ينشرون على الإنترنت رواية مثلا، ويكون لها جمهور من الشباب، ثم يشترون الكتاب عندما ينشر، ولو قرأنا أرقام التوزيع لوجدنا الرواية رقم واحد على حساب الكتب السياسية والتاريخية، بينما تراجع الشعر تماما وصار في المؤخرة على الرغم من الازدهار الشديد لحركة الشعر العامي في فترة التسعينات لدرجة أننا لم نكن نستطيع متابعة حركته بسبب غزارة الإنتاج وقتها في الشعر وأيضا في القصة القصيرة.

وهناك كم من المواهب كبير جدا، والأمر يتوقف على مهارة الأجهزة الثقافية في أن تخدم هؤلاء المبدعين، لكنني للأسف ألاحظ أن الأجهزة الثقافية لا تزال تعمل وفق منطق «اللي معايا واللي ضدي»، بل إن المسؤول الثقافي يحكّم ذائقته الخاصة وأهواءه الأدبية، فيقاوم وجود البعض لمجرد أنه غيرّ معجب به مثلا! والمفروض أن تتحول وزارة الثقافة

إلى داعم للثقافة وليس منتجا لها، ولذلك أدار الشباب لها ظهورهم، والدليل على كلامي أن نتاجات أحسن المبدعين الشباب لم تخرج من الأجهزة التابعة للوزارة وإنما خرجوا من دور نشر خاصة مثل ميريت، هناك ظواهر إبداعية شبابية جديدة تحتاج إلى رؤية بعين مختلفة ولا بد من تشجيعهم.

* هل أنت راض عن الاتجاهات الجديدة في الكتابة الروائية؟

- بحكم عملي الطويل في أخبار الأدب واكتشافي للأجيال الجديدة من الأدباء، فإنني أرى أن هناك ثورة قوية في الكتابة بعد ٢٥ يناير على أيدي كتاب شباب يحتاجون إلى من يرعاهم ويهتم بهم.

* بمناسبة الحديث عن إبداعات الشباب، ما رأيك في ظاهرة انتشار كتابات بلغة سوقية وقد تتضمن شتائم أو خروجا عن الآداب العامة؟

- بداية أنا ضد أي منع أو مصادرة للإبداع وضد أي تدخل رقابي على الكتابة، فالأدب ينقي نفسه بنفسه. وحتى ونحن في اجتماع المجلس الأعلى للثقافة اشتكى بعض الزملاء من الألفاظ الخارجة التي وردت في بعض مسلسلات رمضان هذا العام، فقلت لهم بشدة وحزم إن الذي يريد الاعتراض فليكتب مقالا، ولكن لا نتخذ أي إجراء وإلا فكأن المجلس جاء ليمارس دورا رقابيا! الكتابة الجيدة هي التي تبقى، وكلما ارتفع سقف الحرية وجدنا قيمة أكبر.

* ما تفسيرك لهذا التراجع في الشعر لصالح الرواية؟

– ربما لأن الشاعر بشكل عام إذا لم يجد مردودا إيجابيا لا يستمر وكل فرد لديه قدرة محدودة على المقاومة والإصرار، على عكس جيلنا الذي كان يقاوم ويصر حتى يصل إلى درجة أنه في الثمانينات، وكان الرأس قد امتلأ شيبا، كانوا لا يزالون يطلقون علينا «الأدباء الشبان»، كان مصطلحا يتضمن تيمة وليس مجرد وصف حتى توليت صحيفة «أخبار الأدب» في صحيفة الأخبار، وكنت أول يساري يتولاها، فقمت بتغيير هذا النهج.. مع جريدة «أخبار الأدب» اختلفت المسألة تماما.

* كيف تنظر إلى تجربتك في هذه الجريدة؟

– على مدار ١٧ سنة نجحت مع زملائي في خلق منبر ثقافي في فترة تراجع ثقافي لمصر عوض غيابها في العالم العربي، فأصبحت «أخبار الأدب» موجودة في العالم العربي من المغرب حتى اليمن ودول الخليج. ومن واقع خبرتي بالعمل الثقافي، فإن أي مطبوعة ثقافية تتجاهل الثقافة العربية ككل يكون محكوما عليها بالفشل.

إلى جانب التغطية الصحافية للنص الجيد فلا يوجد اسم في مصر والعالم العربي إلا ومر على أخبار الأدب طبعا مع وجود العمالقة العرب الكبار مثل أدونيس وعبد الوهاب البياتي أو محمود درويش أو سعدي يوسف.

* هل تعتقد أن تجارب الصحف الثقافية المتخصصة الأخرى التي ظهرت في العالم العربي نجحت أم أن النجاح قلما يحالف الصحف الثقافية في منطقتنا العربية؟

- هناك تجارب ناجحة مثل مجلة «الآداب» التي أسسها الراحل سهيل إدريس في لبنان، وكذلك فترة وجود رجاء النقاش في «الدوحة»، أيضا هناك مجلة «العربي» الكويتية وهي مجلة ثقافية عامة، وإن كانت ضعفت إلى حد ما. وهنا أود الإشارة إلى الدور الكويتي الثقافي الكبير سيما قبل الغزو العراقي، فالكويتيون هم الذين احتضنوا سلسلة المسرح العالمي عندما أوقفتها مصر في عهد السادات، وفي هذا الإطار يجدر بنا الحديث عن الدور الثقافي السعودي. ونحن في أخبار الأدب كنا نهتم كثيرا بالأدب السعودي ونشرنا للكثير من الكتاب السعوديين، فالنص الجيد يجد من يدافع عنه في أي مكان.

* ما رأيك في ظاهرة الكتاب الذين يهبطون علينا من الخارج لمجرد حصولهم على جائزة ويحققون الشهرة والانتشار على أثر ذلك؟

- للأسف الشديد سياسة «الأكثر مبيعا» التي تبنتها إحدى كبريات الدور في مصر أساءت للإبداع، بل أراها سياسة مدمرة وأتصور أنها ليست بريئة. فلا يمكن أن يقيم المبدع بحسب ما باع من كتابه وليس بسبب جودته، وللأسف الشديد أن إحدى تلك الروايات وصلت إلى جائزة البوكر. وهنا أود الإشارة إلى شيء أن جائزة البوكر فكرة جميلة جدا لكنها أحدثت خللا في الحياة الأدبية العربية، فمن المعروف أن البوكر في إنجلترا تقدم الأدب الجديد بينما نجد أن أول من حصل عليها في المنطقة العربية هو الكاتب بهاء طاهر، وهو كاتب كبير، ثم تلاه كاتب صغير، فليس هناك ثبات في هذه المسألة، أيضا تتبنى البوكر ترجمة العمل إلى اللغات الأجنبية وتدفع المقابل، وهو ما يخلق تقليدا يضر الكاتب الجيد الذي لم يفز بالبوكر

ولا يمتلك مالا يدفعه لترجمة أعماله؛ مما يخلق أجواء منافسة غير عادلة. وأنا أذكر أن نجيب محفوظ في فترة الخمسينات لم يكن يطبع أكثر من ألفي نسخة على مدار عامين وفي نفس ذلك الوقت ظهر كاتب يدعى عزيز أرماني باع رواية في ربع مليون نسخة، وكانت تحمل عنوانا مثيرا وغلافا مثيرا أيضا، ورغم هذا البيع لم يعتبره أحد أديبا. وحتى الآن أرى أن أفضل جائزة هي التي قدمتها الإمارات وهي جائزة سلطان العويس، لأنها أنزه جائزة عربية في الأدب، فلا يمكن إيجاد ملاحظة واحدة على اختياراتها في أي سنة، لأن معاييرها صارمة، وهناك جائزة أخرى لم تدخل مجال الأدب، لأنها في العلم، وهي جائزة الملك فيصل، وكنت أتمنى أن تدخل مجال الأدب أيضا لأهميتها ونزاهتها. ولكن هناك جوائز بدأت عملاقة مثل جائزة الشيخ زايد وأدعو القائمين عليها إلى حمايتها بما يتناسب مع اسم الرجل الذي تحمله، وبشكل عام أعترف أن منطقة الخليج أصبحت مؤثرا ثقافيا مهما جدا في العالم العربي، وأنا أحيي هذا الجهد.

* من واقع تجربتك العملية هل يفيد العمل الصحافي الأديب أم يضره؟

- الصحافة مهنة خطرة على الأدب، ولكن إذا نجح الأديب في توظيفها لصالح الأدب، فإنها يمكن أن تفيده بشرط أن يضع الأديب حدودا للصحافة. ولو تسألينني عن أكثر فترة استفدت فيها من الصحافة، لقلت لك إنها كانت خلال عملي كمراسل حربي، لأنها تجربة نادرة وثرية، وكانت فرصة مهمة جدا لي كأديب، كانت فترة الحرب تلك من أفضل اللحظات التي عشتها في حياتي رغم مخاطرها ومتاعبها كمراسل موجود في قلب النار.

* رغم ذلك لم تكتب كثيرا بما يتناسب مع معايشتك لتلك التجربة؟

- بالفعل لم أكتب كثيرا عن هذه الفترة بسبب صدمتي من توابع القرارات التي اتخذها السادات بعد حرب أكتوبر (تشرين الأول)، وعندما كتبت «حكايات الغريب» مثلا كانت مرثية للحرب.

* كنت أقرب الناس للأديب نجيب محفوظ، ماذا تذكر عن تلك الفترة؟ وكيف أثرت عليك كمبدع وإنسان؟

- في الكتابة أنا مختلف عن نجيب محفوظ، وعلاقتي بنجيب محفوظ أساسها بعدها الإنساني وانبهاري به كروائي كبير، نجيب محفوظ قامة أدبية كبيرة ولكني أتحداك أن تجدي كتبه كلها الآن، للأسف! لقد انبهرت به ككاتب قبل أن أعرفه وتعرفت عليه وعمري ١٤ سنة، فكانت علاقتي به علاقة ابن بأبيه لدرجة أن أسراري كانت معه. كانت لديه نظرة كونية عميقة.

* ربما كان ذلك لدراسته الفلسفة؟

- هناك كثير من الأدباء درسوا الفلسفة لكنهم لم يصبحوا أدباء كبارا! نجيب كان لديه هذه النظرة الكونية بدافع همومه الأساسية. ما لم تكن هناك هموم داخلية في تركيبة الأديب فلن يكتب أشياء لها قيمة، الهم الأساسي الذي شغل نجيب محفوظ هو فكرة الأصل ونجدها في مختلف أعماله، ومنها «الثلاثية» و«أولاد حارتنا» و«الحرافيش»، كلها دارت عن المصدر أو الأصل، وهو الأب والذي جاء واقعيا في شخصية السيد أحمد عبد الجواد في الثلاثية، وجاء رمزيا في شخصية الجبلاوي في «أولاد

حارتنا»، ومرة أسطوريا في شخصية عاشور الناجي في «الحرافيش»، فهو مهموم بشجرة الإنسانية وإلى أين تتجه.

* أيضا حديث «الصباح والمساء» كانت نموذجا لهذا النهج في أعمال نجيب محفوظ؟

– هذه الرواية مذهلة معماريا، وعندما قدمت للتلفزيون كتبها محسن زايد بشكل رائع وكان أحسن من يكتب السيناريوهات.

* قلت إنه لا بد للكاتب من هموم تشغله كي يبدع، فما هي هموم جمال الغيطاني التي تدفعه للكتابة؟

– منذ بدايتي وأنا مهموم بعنصر الزمان وهو اختزال للزمن ويعكس بوجهه الآخر عنصر المكان، ويرجع ذلك لحرصي الشديد على التمسك بحياة تضيع مني، خصوصا مع تقدم العمر.

جمال الغيطاني روائي عارض كل رؤساء مصر ووقع في غرام الجيش

الروائي المصري الذي عاش دائما على يسار أيّ نظام سياسي تعاقب على حكم مصر، كان عداؤه الأبرز لجماعة الاخوان التي كان يراها تنظيما أجنبيا.

جمال الغيطاني مراسل حربي مات وهو يتباهى بأن دماء عروقه بلون الزي العسكري

من يتأمل حياة الروائي المصري الكبير جمال الغيطاني يلمس فيها العديد من المفارقات، فقد التحق بالعمل في الصحافة بسبب رواية له نالت إعجاب الكاتب محمود أمين العالم الذي كان وقتها في نهاية الستينات من القرن الماضي رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم.

في المقابل، كان لعمله كمراسل عسكري للجريدة في فترة حرب الاستنزاف وحتى نصر أكتوبر ١٩٧٣ دور كبير في شهرته الأدبية، بعد أن نجح في لفت الأنظار بقوة إلى الجانب الإنساني في المعارك والجنود عبر ما كان يسطره قلمه طوال فترة عمله على الجبهة بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٤ في صحيفة الأخبار المصرية.

لكن وسط المفارقات المتعددة كانت هناك حقيقة واحدة ثابتة في عقيدته الحياتية هي ارتباطه الوثيق وإيمانه الذي لا حدود له بوطنية وعظمة الجيش المصري فيما بدا أنه حب متبادل.

الغيطاني الذي اختار له القدر أن يرحل عن عالمنا قبل أيام، في الذكرى الثانية والأربعين لمعركة العزة والكرامة، اعتاد أن يقول متباهيا بعلاقته مع القوات المسلحة "لو سمح المجاز لي، سأقول إن دمائي التي تسري في عروقي كاكية اللون (لون زي الجيش المصري)، فإيماني بالعسكرية المصرية مطلق وبغير حدود".

وقد حمل البيان الذي أصدرته القوات المسلحة لنعي الكاتب الراحل، في واحدة من المرات النادرة التي يصدر فيها الجيش المصري بيانا مماثلا، مشاعر حزن نبيلة بين سطوره، تتجاوز رسميات العزاء المتعارف عليها لتعكس إدراكا واعيا لما قدمه الغيطاني بقلمه من خدمات للوطن وحرّاسه.

كلمات البيان يشعر من يقرأها بصدق مشاعر من كتبها، سواء عندما توقف عند مفارقة أن روح الأديب المحارب، كما وصفه، أبت إلا أن تلحق برفاقها المقاتلين وفي الشهر نفسه شهادة له بصدق النية واستجابة – ربما– لدعواته عندما سطّر أروع كتاباته من على خط النار عن شهدائنا

في أكتوبر، وتمنى أن يلحق بهم، أو عندما اختار أن يختم بعبارة قاطعة تقول إن "الرجال أمثال جمال الغيطاني ترحل ولا تموت" وهي عبارة تستخدم عادة في نعي القادة العسكريين.

تصوف أدبي

الكتابة العابرة عن علاقة الغيطاني بالجيش، قد تتوقف عند الكثير من الهوامش أو المظاهر البعيدة عن الواقع، لكن قراءة أكثر تعمقا لفترة عمله كمراسل وكتاباته عن حصيلة ما اختزنته ذاكرته من تلك الفترة تقود إلى تفهم حالة التماهي الكاملة بين الأديب والعسكري.

فهو رأى خلال تلك الفترة الموت والحياة في صورتهما البدائية، فمكنه ذلك من الارتحال عبر آلاف السنين، متجاوزا العديد من مراحل تطوّر البشرية، وكان ذلك الارتحال، في ما بدا لاحقا، هو خطوته الأولى نحو التصوّف الأدبي الذي سيميّز رواياته فيما بعد ويخلق منه نمطه الفريد الذي كان عليه.

تشاؤمه المبكر في وقت كان فيه المصريون منتعشين بالأمل عقب نجاحهم في إسقاط نظام مبارك، يفسره الغيطاني بأن مشهد يوسف القرضاوي الهرم المخرف، وهو يحرض على الجيش المصري والحضور البارز للإرهابي عاصم عبدالماجد الذي قتل ١٢٢ جنديا، جعلاه يوقن بأن الثورة تم اختطافها

خلال تلك الفترة أيضا، وجد أعظم المكنونات البشرية في الجنود البسطاء الرابضين على الجبهة، ينتظرون الموت بنفس البساطة التي يقبلون بها على الحياة مع إشراقة كل صباح، أدرك أن الحقيقة الكاملة التي ينفق الكثيرون أعمارهم في البحث عنها دون جدوى موجودة في روح كل

جندي مصري قضى أجمل أيّام شبابه داخل خندق لا صديق له سوى سلاحه وكتابه المقدس، سواء كان قرآنا أم إنجيلا.

ورغم أن الغيطاني عاش الموت طوال سنوات تجنيده الخمس بالقوات المسلحة المصرية، إلا أن موقفا واحدا ظل مسيطرا على تفكيره طوال ٤٢ عاما الماضية، الموقف حدث في أحد أيام حرب الاستنزاف، نهاية ستينات القرن الماضي، في المقهى الوحيد بمدينة السويس التي كان قد تمّ تهجير سكانها عقب نكسة يونيو ١٩٦٧ مثلما حدث مع سكان مدينتي الإسماعيلية وبورسعيد وهي المحافظات الثلاث المطلة على قناة السويس.

في ذلك اليوم ذهب إلى المقهى متأخرا، فلم يجد سوى مقعد بلا ظهر، فجلس عليه مستسلما، حتى قام جندي إطفائي من مقعد مواجه له، وأصر عليه أن يتبادلا مكانيهما، وعندما حاول الغيطاني الاعتذار فوجئ بالرجل يسحبه تقريبا من يديه ليجلسه مكانه.

وما هي إلا لحظات حتى فوجئ كل من في المقهى بالرجل يسقط مكانه دون حراك، فهرع الجميع وبينهم الغيطاني نحوه لاكتشاف ما حدث ليجدوه قد فارق الحياة، ولاحظوا نزيفا خلف أذنه فعرفوا أن رصاصة إسرائيلية خائنة اخترقت رأسه لتفجّر مخه.

هذا الحادث الذي كان يفترض أن يكون الغيطاني ضحيته، لولا شهامة الجندي البسيط، أجبره على التوقف أمام العديد من حقائق الحياة والقدر، وزاد ارتباطه بالجيش ورجاله حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدي عدد منهم داخل مستشفى الجلاء العسكري.

جنرال الرواية

التواصل الإنساني المميز ترك أثره على مواقف الغيطاني وآرائه السياسية في ما بعد، ورسّخ داخله قناعة تصل إلى درجة الإيمان أن الجيش المصري العمود الفقري للدولة المصرية، هو مؤسسة حضارية وليست عسكرية فقط، وتراث وطني طويل جدًا منذ عصور الفراعنة، وهي قناعة جعلت حكمه على أيّ رمز أو زعيم سياسي مبنيا على موقف هذا الرمز من الجيش المصري، يهاجم من ينتقدون القوات المسلحة، مثلما فعل مع محمد البرادعي، مدير وكالة الطاقة الذرية سابقا، ونائب رئيس الجمهورية المصري السابق، الذي قال عنه: لو كان ثائرا حقيقيا لأصبح مثل سعد زغلول أيقونة للثورة المصرية وزعيما لها، لكنه بدأ يهاجم مؤسسات الدولة فنفرت منه الجماهير.

الغيطاني يعلق على اعتلاء القرضاوي لمنصة التحرير بيوم أسود على مصر

كذلك هاجم عمرو موسى الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية، ورئيس لجنة الخمسين التي أعدت الدستور المصري الجديد، وانتقده بقسوة محمّلا إياه مسؤولية تراجع الآمال عقب ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣، لأنه أراد عمل دستور يناسب ذاته المتضخمة، ويتيح له (إذا قدر له أن يصبح رئيسا للبرلمان) أن يمتلك صلاحيات تفوق تلك التي يتمتع بها الرئيس المصري.

لم يخف الغيطاني امتنانه البالغ للجيش وقائده (رئيس الجمهورية فيما بعد) عبدالفتاح السيسي للدور الذي لعبه خلال ثورة ٣٠ يونيو من أجل إعادة مصر التي اختطفتها جماعة الإخوان، فالروائي الذي عاش دائما على يسار أيّ نظام سياسي تعاقب على حكم مصر، كان عداؤه الأبرز لجماعة الاخوان التي كان يراها تنظيما أجنبيا اعتبر توليه لحكم مصر بمثابة الاحتلال، وأن وصول جماعة الإخوان إلى سدة الحكم ليس هزيمة لحسني مبارك إنما للدولة المصرية الحديثة التي بناها محمد علي باشا قبل حوالي مائتي عام.

تأججت حالة العداء بعد أن استقبل نجاح الرئيس الأسبق محمد مرسي في الانتخابات الرئاسية صيف عام ٢٠١٢ بمقال انتشر وقتها على نطاق واسع بعنوان "وداعا مصر التي نعرفها" نعى فيه التعددية والليبرالية وغيرها من السمات التي تجذرت في المجتمع المصري على مدى آلاف السنين.

الحرب مع الإخوان

صدامه الأول مع الجماعة حدث خلال أول تظاهرة عقب تنحّي مبارك حين اعتلى الشيخ يوسف القرضاوي منصة ميدان التحرير ليحرّض على الجيش والمجلس العسكري الذي كان يدير الفترة الانتقالية، وقتها علّق الغيطاني على المشهد لإحدى الفضائيات معتبرا أن ذلك يوم أسود على مصر.

في تفسيره لتشاؤمه المبكّر في وقت كان المصريون فيه منتعشين بالأمل والتفاؤل بالمستقبل عقب نجاحهم في إسقاط نظام مبارك، قال الغيطاني إن "مشهد القرضاوي وهو رجل هرم مخرّف، يحرّض على الجيش المصري وسط تصفيق أعضاء الجماعة الذين رموا شباب الثورة من على المنصة، والحضور البارز للإرهابي عاصم عبدالماجد الذي قتل ١٢٢ جنديا مصريا عام ١٩٨١ جعلني أوقن بأن الثورة تم اختطافها".

العداء الطويل بين الروائي الراحل والإخوان دفع العديد من المواقع المحسوبة عليهم للتشفي في موته متجاهلين ما أمرنا به ديننا الإسلامي من أنه لا شماتة في الموت، وكتب الكثيرون تعليقات من عينة "في ستين داهية وعقبال كل الكتّاب الفاسدين" و"الحمد لله الذي جعلنا نرى هلاك هؤلاء الظالمين".

الغيطاني يفترض أن يكون قد راح ضحية رصاصة طائشة، وشهامة جندي بسيط أجبرته على أن يقف أمام العديد من حقائق الحياة والقدر، ما زاد من ارتباطه بالجيش ورجاله، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدي عدد منهم داخل مستشفى الجلاء العسكري

معارض دائم

ما أغفله أعضاء جماعة الإخوان والمتعاطفون معها، أن عداء جمال الغيطاني لهم كان مبنيا على منطلقات دينية وإنسانية تخشى من ثقافة التخلف والراغبين في إعادة مصر إلى الوراء، حيث كان يرى أن التخلف مفتاح المآسي الموجودة الآن في الساحة العربية، وهو السبب الذي يعطي

الغرب وأحفاد الاستعمار فرصة للتدخل، ومحاولة فرض المفاهيم أو الوجود، وهو تخوف كان يعتقد أن الفرصة الوحيدة لدفعه عبر إيجاد مجددين شجعان يدخلون بنا إلى صميم العصر، وإلا سيكون المصير مخيفاً.

المؤكد أن الغيطاني لم يبن مواقفه يوما ما انطلاقا من فساد أو بناء على مصلحة شخصية، خاصة أنه لم يجمع ثروة مثلا في حياته تدفع الناس للتساؤل عن مصدرها، ولا كان ربيبا لأيّ حاكم أو نظام سياسي تعاقب على حكم مصر.

عارض الغيطاني جمال عبدالناصر ودخل السجن ستة أشهر تقريبا في العام ١٩٦٦ بسبب انتمائه لتنظيم ماركسي، رغم أنه لم يكن يخفي حبه للزعيم الراحل وحزنه على رحيله، وهو حب تجاوز علاقة الرئيس بواحد من أبناء شعبه إلى مشاعر صوفية متداخلة، فقد وصف عبدالناصر في تصريح له بأن العيد لم يكن يكتمل إلا برؤيته، حيث كان يصلّي العيد في مسجد الحسين، وكان الغيطاني من سكان منطقة الجمالية القريب من الحسين في حي يعرف بالقاهرة الفاطمية، فكان يخرج مع أقرانه من الأطفال "لكي نقابله ونراه فجمال عبدالناصر لن يتكرر"، كما يقول.

حتى انتقادات الغيطاني لعبدالناصر تعكس مشاعره الصوفية له، فهو يرى أن الرجل أحد مآسي العالم العربي، لأنه بعد رحيله تصور حكّام بعض الأقطار العربية أنه يمكنهم أن يصبحوا جمال عبدالناصر، ونسوا أنه محصلة تاريخ وجغرافيا، يعني لو وجد في العراق لم يكن سيصبح هو عبد الناصر الذي عرفته مصر.

على العكس من ذلك كان موقفه من الرئيس الراحل أنور السادات الذي لم يتعرض للأذى في عهده، لكنه اعتبر أن فترة حكمه مسؤولة عن كل ما حاق بالبلاد من فساد وخراب.

ضيق الروائي الراحل بسياسات السادات انعكس في العديد من كتاباته، ومنها ما ذكره في رواية "رسالة البصائر في المصائر" على لسان الراوي الذي يجسده هو، حيث قال واصفا فترة حكم السادات "اعلموا أن ما مر بنا ثقيل، وأن ما عرفناه مضنٍ، وما قاسيناه صعب، مرٌّ، هذه السبعينيات من زماننا الكدر عَقد انقلاب أحوال، وأمور غريبة، وبلايا ثقيلة، وتحولات شملت جُلَّ القوم، كذا ما تلاها، وقد عاينتُ ذلك، قاسيته تضاعف همي، ناء وقتي بما عرفته".

في لقاء متلفز في بداية الألفية الثالثة قال الغيطاني مفسرا موقفه المتناقض من الرئيسين الراحلين "مع عبدالناصر كنت تختلف على نفس الأرضية، وخلاف مع فتوّة عادل كبير وجميل، لكن مع أنور السادات، أنا مرّت عليّ أيام في حكمه كانت أسوأ من أيام المعتقل أيام عبدالناصر".

رحل جنرال الرواية العربية، كما أطلق عليه بعض المقربين منه، بسبب حبه للمؤسسة العسكرية المصرية، وإبداعه الأدبي، الذي تميز بطعم خاص، برع فيه باقتدار، وهو ما سيجعله في ذاكرة المصريين والعرب بمثابة "الميت الحاضر".

أجريت هذا الحوار مع الأديب الكبير جمال الغيطاني في بداية حكم المعزول محمد مرسي وحدث أن قام الاخوان بعمل تغييرات صحفية حالت دون النشر. ودارت الأيام وتغيرت الرؤي.. وعندما حدثت وفاة أديبنا الكبير وكانت صدمة كبيرة أوجعت قلوبنا.. عاودت البحث مرة أخري عن الحوار.. ولحسن الحظ كان مختفيا داخل أحد أجهزة الكمبيوتر بعنوان الغيطاني في حوار غاضب.. فقد كان هذا الحوار في لحظة غضب ويأس من حكم الاخوان,

وكان أديبنا الكبير يوجه كلماته كطلقات الرصاص ضد الظلام والظلاميين مرسي والشاطر وبديع حتي أنني أشفقت عليه وسألته: ألا تشعر بالخوف ؟ فأجاب: حياتي الآن وقت إضافي منحه الله لي, والعملية الأخيرة التي أجريتها أعطتني احساسا أن الله أهداني وقتا إضافيا بعد أن تهيأت تماما للرحيل.. يرحمك الله يا أستاذ جمال.

الغيطانى وأوضاع مصر فى حكم الإخوان

لأكثر من ثلاث ساعات بدأ الحزن ساكنا وجه مبدعنا الكبير جمال الغيطاني لم تند عنه ضحكة أو ابتسامة.

الحوار الذي بدأ حانيا عند الحديث عن صورة التقطها لنجيب محفوظ يسير نحو الضوء ولاقت إعجاب فنانيين عالميين, سريعا ما أصبح حوارا حزينا عن مصر تاريخا وحاضرا ومستقبلا.

إنها قراءة مبدع للأحداث الجارية, قراءة تبعث علي الحزن والشجن, ربما الغضب, وهي في النهاية صرخة ضد الجميع الأخوان والثوار أيضا.

مبدعنا الكبير الذي يعتبر ما يعيشه الآن وقتا إضافيا ومنحة من الله قرر أن يغضب الجميع, وأن يقول كلمته بضمير مستريح لعل الكلمة تسهم في إنقاذ وطن أحبه حد العشق, أسمه مصر.

والغيطاني حائز علي جائزة الدولة التقديرية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولي ووسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس وترجمت أعماله إلي العديد من اللغات الأجنبية فإلي الحوار:

<<كيف تري الوضع في مصر الآن؟

<مصر حاليا وبدون مبالغة في أخطر لحظة منذ انهيار الحضارة المصرية القديمة بعد الأسرة الثلاثين, وكما تعلم فإن عصر الدولة القديمة كان عصر استقرار وبناء وحضارة, وفيه تم بناء الهرم, والهرم سياسة وليس عمارة فقط, سياسة مركزية صارمة شديدة ينتج عنها البناء

والعمارة.

<<لكن مصر تعيش دائما لحظات صعود وهبوط ؟

>مصر تشبه الهرم تصعد ساعات ثم تهبط ولا تراها, وهي تشبه أيضا طائر العنقاء الذي يتحول إلي رماد ثم يعود مرة أخري يعيش وينبعث من الثري هذه هي مصر, فهي تمرض ولا تموت, يختلف نوع المرض بالطبع, فهناك مرض يستمر ؟؟ كما حدث بعد سقوط الدولة القديمة أو ستة قرون في مرحلة أخري.

ونحن حاليا نعيش لحظة الوقوف علي شفا الإنهيار مثلما حدث أيام الأسرة السادسة واستغرق الأمر ٥١٠ سنة حتي ظهرت الدولة الوسطي, وقادت الحضارة مرة أخري.

<<هل سننتظر ٥١٠ سنة لنخرج مما نحن فيه؟

>بحكم التغيرات والتطورات التكنولوجية والانترنت سوف تعبر مصر هذه المرحلة خلال سنوات قليلة, لإن ما كان يستغرق مائة عام قد يأخذ عاما أو أقل.

<<التاريخ يقول إن مصر تصعد لكنها دائما تهبط فجأة؟

>جمال حمدان يقول بعبقرية الموقع, وأنا أقول بمصيبة الموقع, فلو كنا في موقع اليابان أو الصين, مثلا لحافظت مصر علي استمرار قوتها. فالوجود المركزي في قلب العالم صنع استمرارية مصر وتغيرها, فالموقع الذي عرض مصر لعواصف السياسة العالمية هو نفسه الذي حماها من

التطرف الديني, فمصر هي جوهرة التوازن في التاريخ الإنساني, ومن يقرأ تاريخ مصر جيدا لا يمكن أن يكون متطرفا أو اخوانيا.

ومصر غيرت لغتها مرتين اللغة القديمة ثم اللغة القبطية واستقرار اللغة العربية احتاج٤٠٠ سنة, وحتي القرن التاسع عشر كانت هناك أسر تتكلم اللغة القبطية التي هي المصرية القديمة.

وكتب التاريخ لم تسجل أن هناك فرعون سرق والفرعون كان يستعد للموت قائلا حققت العدل والغذاء واللبن لكل طفل.

ومصر هي بلد الحدود, وهي البلد الوحيد الذي تقف فيه بين الصحراء والأرض الخضراء يفصل بينهما سنتيمترات قليلة, والمصري القديم عندما كان ينبي المعبد القديم كان يجعله علي علاقة بالكون من بجهاته الأربع.

فمصر دولة مؤمنة منذ فجر التاريخ, وهي لم تكن أبدا وثنية أي لم تعرف المفهوم الوثني, وآمون هو أمين, السري الخفي, فمصر هي التي قدمت الدين للعالم, وكل الديانات تقول الآن أمين, أي الآله الواحد. ولو قرأ يا سر برهامي مثلا كتاب الخروج إلي النهار المعروف بكتاب الموتي لوجوده في التوابيت لكف عن تكفير الناس كل دقيقة.

ولأدرك أن المصري القديم كان يعتبر الموت انتقالا لحياة أخري. وفي مقدمة الكتاب يقول المصري القديم بالأمس أتممت حياتي, واليوم أخرج إلي النهار, وفي عملية الانتقال أول تصور للميزان والحساب.

دولة بهذا الثراء لا يمكن أن يتحكم في مقاديرها جماعة أو فصيل مهما كانت هذه الجماعة؟

<<ما هي المشكلة في وجود جماعة الإخوان في حكم مصر؟

<المشكلة أن جماعة الإخوان والسلفيين ليس لديهم إيمان بفكرة الوطن, فهم يؤمنون بفكرة الأمة التي ترتبط بوجود المسلم في أي مكان, فهؤلاء ليس لديهم رؤية والمهم لديهم هو التمكن من الحكم, وإلا كيف تحولوا من العداء الشديد للولايات المتحدة إلي أصدقاء لها, هل معني ذلك التقاء في الأهداف؟ نريد أن نعرف ما الذي حدث بين الطرفين, وما هي نوعية الصفقات التي تمت؟ خاصة أن وصول الرئيس مرسي للسلطة يحيطه كثير من الغموض.

<<من المسئول عن صعود الإخوان بهذا الشكل ووصولهم إلي قمة السلطة في مصر؟

<للأسف قيادة الجيش ــ وأنا من أكثر المدافعين عنهم لأنهم عامود الوطن الذي يحميها من الانهيار ــ وأحد أهم واجبات الجيش المصري التي أذكر بها منذ عصر محمد علي, ومنذ الملك العقرب قبل الملك مينا غير الدفاع عن الخطر الخارجي هو الدفاع عن الدولة من الداخل, وهو مؤسسة مسئولياتها الدفاع عن مدنية المجتمع, فما الذي جري حتي يسمح قادة المجلس العسكري بظهور أحزاب علي أساس ديني.

هذا كان مبدأ التزمت به الدولة المصرية في جميع عهودها سواء العصر الملكي أو الجمهوري, لا يوجد حزب علي أساس ديني لأنه يبرر

الانقسام الطائفي, فما الذي جعل الجيش المصري يتعاون مع طارق البشري وصبحي صالح ولجنة الدستور لنصل إلي ما وصلنا إليه الآن.

<<هل أصبحت الطائفية تهدد مصر؟.

<مصر أصبحت طائفية بالفعل, وهو ما لم يحدث في تاريخها, فمصر قوتها دائما في التعدد والتعايش, ويوجد في مصر مثلا٦١ معبدا يهوديا, يوجدون في أماكن متفرقة, وليس في جيتو يهودي, كما هو في العالم, وخروج اليهود المصريين كان خسارة ثقافية لمصر. بينما يهود المغرب يعيشون في حي بجانب قصر الملك, أي أنه يبسط حمايته عليهم, ونحن لدينا الآن٠٠٣ يهودي فقط, وللعلم عندما خرج المسلمين من الأندلس خرج معهم اليهود.

فحكم الاخوان ضد تكوين مصر لأنه يمثل سيطرة فصيل ولون واحد علي المشهد تماما بينما مصر قامت علي التنوع, وعندما ينفرد بها نوع واحد تصبح فقيرة محدودة, ولذلك أتنبأ بحدوث هجرات واسعة للأقباط, خاصة الأغنياء, مما سيقضي تماما علي التنوع المصري, كما ستصعد الجماعات الدينية أكثر ويتفقون في الرأي مع دموية الأخوان والسلفيين,.

للأسف الجيش أخطأ وخرج عن مساره التاريخي, ولكن هذا لا يعني أن أهدم هذه المؤسسة الكبيرة التي مهمتها حماية المجتمع من سيطرة فصيل واحد علي مقدراته, وهذا الفصيل أصبح يهدد الجيش المصري نفسه وإنهاء دور الجيش المصري هدف رئيسي للاخوان, وهذا يلتقي مع سياسة أمريكية تهدف للقضاء علي الجيش وتحويله إلي قوات مكافحة إرهاب.

<<كيف نريد توضيحا أكثر؟.

<منذ أيام السادات رفض قادة الجيش المصري تغيير عقيدته القتالية, واستبدال العدو الإسرائيلي بخطر, وهمي من ناحية القذافي أو من ناحية الجنوب, وفي آيام مبارك طلب منهم بناء علي أوامر أمريكية أن يتحولوا إلي مقاومة الإرهاب, ولكن يحسب لقادة الجيش المصري أنهم قاوموا ذلك بشدة وحافظوا علي الجيش المصري كمؤسسة متكاملة مدنية حديثة. والآن من مصلحة الاخوان عدم وجود جيش مصري محترف لأنهم يريدون لميليشاتهم أن تسود, ولن يهدأ لهم بال حتي يتم تفكيك الجيش.

<<ضعف الجيش ألا يكون ضد مصلحة الأخوان لانه يؤدي إلي ضعف الدولة المصرية؟

<هؤلاء ليسوا الدولة المصرية إنهم فقط يريدون أن يكونوا دولة داخل الدولة, وأن يسيطروا علي مفاصل الوطن, وخطتهم تبدأ بالصحافة والإعلام ثم القضاء, وأخيرا الجيش, لأنه لا يوجد حزب في العالم يفوز بالحكم يستعجل علي تغيير الدولة من أساسها, ففي كل دول العالم يأتي الحزب الفائز في الانتخابات, ويعمل في إطار المؤسسات القائمة لا أن يعمل علي إحراقها وتقويضها.

<<كثير من الناس تتحدث عن مشروعات الجيش؟.

مشروعات الجيش هي الشكل الصحي الوحيد للقطاع العام, والهدف منها ضمان توافر الامدادات للجيش طوال الوقت دون التعرض لخداع من

أحد الموردين مثلا. والهجوم علي مشروعات الجيش يأتي في إطار حملة مدبرة تقول بسقوط حكم العسكر... وكأنه جيش الانكشارية, وليس جيش مصر, وحتي كلمة العسكر جاءت من الاحتلال العثماني.. أخطأ الجيش نعم أخطأ, ولو أنه نجح لقاد مصر إلي الذروة, ولكن هذا ما حدث, وهو لا يبرر الهجوم المستمر, وأعتقد أن تماسك الجيش المصري حتي الآن هو نوع من المعجزات, خاصة أنه أصبح هدفا لقوي دولية بعد تدمير الجيش العراقي ثم السوري, والجيش المصري يتكون, مثلا من٨٢ لواء مدرعا, بينما الجيش الجزائري, وهو التالي في القوة الآن أربعة ألوية مدرعة.. وبالتالي, فالحفاظ علي الجيش المصري مهمة كل الوطنين المصريين ضد محاولات الاخوان الإجهاز عليه.

<<ما هو دور المثقفين في هذه اللحظة الفارقة؟.

<لا يوجد مثقف حقيقي يمكن أن يقف في صفوف الأخوان لإنهم خطر علي وجود مصر التاريخي ناهيك عن خطورته علي الفن والابداع الذي هو رأسمال مصر الحقيقي, وقوتها الناعمة. فمصر من غير ثقافة, و إبداع, كما يريد الأخوان, تصبح جمهورية صحراوية, فكيف لمبدع حقيقي أن يقف مع هؤلاء؟.

<<رغم كل الاعتراضات علي الإخوان لكن الرئيس مرسي جاء بانتخابات؟.

<وضع الانتخابات ليس مثاليا, وكيف نقول إنها انتخابات ديمقراطية, بينما ميليشيا الإخوان كانت في التحرير تهدد بإحراق الوطن,

إذا خالفت النتيجة توقعاتهم, هذه الانتخابات عليها علامة استفهام كبيرة, إضافة إلي حدوث تلاعب ومنع لمواطنين من الادلاء بأصواتهم, وهي جريمة لو حدثت في أي دولة ديمقراطية لتم الغاء الانتخابات فورا.

<<ما هو تقييمك للرئيس مرسي؟

<هل مرسي هو الرئيس الفعلي أم لا, فمركز الحكم الآن موجود في المقطم, وليس في قصر العروبة, وهذا ما يجعلني أتمني أن أستيقظ ولا أجد الإخوان في الحكم, وأن يحدث ذلك دون أنهار من الدم.

<<ألا توجد طريقة أخري للخروج من هذا المأزق؟.

<أتصور أن كل من يؤمن بالوطنية المصرية عليه أن يتوحد مع القوي السياسية غير الإخوانية, لإسقاط الاخوان وإخراجهم من الحكم في أول انتخابات قادمة, هذا طبعا إذا عملوا انتخابات.!

كما أدعو إلي تصعيد أشكال الاحتجاج الشعبي, بحيث يقل انفرادهم بالساحة, ومقاومة كل الخطوات التي تهدف للسيطرة علي مؤسسات الدولة, مثل الداخلية والإعلام والقضاء والجيش.

<<ما هي القوي الوطنية التي يمكن أن نتحدث عنها؟.

<قطاع المصريين الذين قاموا بالثورة.. فمصر في حاجة إلي قيادة جديدة, وليس إلي ثوار فضائيات, لقد كنت من المعجبين بحركة٦ أبريل لكنني صدمت في تأييدهم للإخوان وأدركت أن هؤلاء تحركهم أعراض غير

واضحة. وللعلم إذا لم تتحد القوي الوطنية, فسوف يتم دفع مصر إلي حرب أهلية, وسوف يكون البعد الطائفي موجودا بقوة.

<<ما رأيك في الدكتور محمد البرادعي؟.

<البرادعي ضيع علي مصر فرصة سعد زغلول آخر.

<<كيف؟.

<الناس منحته إمكانية أن يصبح زعيما للثورة في حجم سعد زغلول وإمكاناته تؤهله لذلك, ولكن لا تستطيع أن تطلب من شخص أن يقوم بدور لا يريد القيام به. وأعتقد أنه إذا استمر الإخوان في سياستهم فلن يصبح أمامنا إلا الجيش لينقذنا, فمن المتناقضات أن المؤسسة العسكرية تدافع الآن عن مدنية الدولة.

<<هل يعني ذلك انتظار انقلاب عسكري؟.

<أنا لا أتمني أن تصل إلي الانقلاب العسكري, لانه كان ممكنا عندما كانت تركيبة الجيوش محدودة, وفكرة الانقلاب العسكري بالكامل قد تعرض الجيش للانقسام, ولكني أقبل أن يتسلم الجيش السلطة في حالة وصول الدولة المصرية إلي حافة الانهيار التام والتعرض للحرب الأهلية أو الفوضي, فالقوات المسلحة يجب أن تكون طبقا للدستور ضامنة للدولة الحديثة والوحدة الوطنية ومياه النيل والثلاث الآن علي المحك.

<<ما هو تعليقك علي ما حدث في سيناء؟

<ما حدث في سيناء سوف يحدث غدا في القاهرة, وغيرها من المدن, فرئيس الجمهورية بدأ عهده بالإفراج عن القتلة, لقد فتحنا المعابر, فكان الرد هو هذه العملية التي هاجمت شهدائنا, هذه إدارة متخلفة لا تليق بدولة قديمة متحضرة.

<<بعيدا عن سيطرة لون واحد علي الدولة كيف تنظر إلي إدارة الاخوان ؟.

<هي إدارة لجماعة وليس لدولة, وكل ما يقدمونه فتوي وغير أخلاقي, فقبل أن تعطي غزة كهرباء عليك أن توفر الإنارة لكل منزل في مصر, لأنه لم يحدث أن قام رئيس دولة بإرسال كهرباء بلاده إلي دولة أخري, وترك شعبه يعيش في ظلام وتلوث, كيف تعطي الكهرباء لحماس التي تملك أموالا ليس لها حدود, في الوقت الذي أنفق خالد مشعل علي زواج ابنته٥ ملايين دولار, فهل هؤلاء أجدر بالمساعدة أم الشعب المصري الفقير الذي تقول انك تخدمه.

<<أي مرحلة من تاريخنا تشبه المرحلة الحالية؟.

<ما يحدث الآن يشبه الغزو العثماني, ونحن في احتياج سليم الأول للقاهرة.

<<هل تشبه الاخوان بالاحتلال؟.

<نعم احتلال, وهم أخطر أنواع الاحتلال لأنه من الداخل, والاحتلال هو الذي يقوم بإخراج دور مصر عن سياقه, وهم يقومون بذلك لأنهم لا يؤمنون بفكرة الوطنية المصرية ولا فكرة الأمة.

انني مندهش لأن الانجليز المستعمرين عملوا شبكة ري وسكة حديد وأحيو مصر. والفرنسيين فتنوا بمصر.. بينما نحن الآن يحكمنا مصريون يهددون فكرة الدولة المصرية ذاتها, وتفكيك مؤسساتها, وعملية جمع القمامة بروفة لنزول الميليشيات المسلحة التي قد تضطرنا لطلب حماية الأمم المتحدة, فمصر تتجه للتقسم والحرب الطائفية, وكل طائفة سوف يكون لها الميليشيا الخاصة بها.

<<ما رأيك في الحكومة الجديدة؟

<حكومة لعب عيال... ولا أري لمعة ذكاء أو نبوغا لأي من أفرادها.. بمن فيهم رئيس الوزراء هشام قنديل الذي كان مديرا لمكتب محمود أبو زيد وزير الري والموارد المائية الذي خرج أيام مبارك بطريقة مهينة بسبب جريمة لم تتكشف إلي الآن لها علاقة بمياه النيل... وهل يعقل وزارة ثورة لا يوجد بها أي من شباب الثورة..

وأقول للرئيس مرسي ان المصريين لن يحترموا رئيسهم إلا بالعمل والإخلاص للأغلبية, وليس للمرشد أو خيرت الشاطر.

<<هل تري أن خيرت الشاطر يكرر تجربة أحمد عز؟.

<الشاطر أخطر من أحمد عز لأنه يملك قوة مسلحة وميليشيات, ولقد كنا نعرف ماذا يعمل أحمد عز لكننا لا نعرف وظيفة خيرت الشاطر, ولا مصدر أمواله, وهل هي أموال جماعة الاخوان أم أمواله الشخصية, وما هو الحد الفاصل بينهما.. وما هي خطط الجماعة وخطط الدولة.

للأسف الشديد أي مقارنة بين نظام مبارك في أحط أيامه ونظام الجماعة سوف يكون لصالح مبارك لأنك كنت تستطيع مقاومة مبارك, الآن من يقاوم مرسي يقولون عليه كافر.

وللآسف حتي المقارنة بين مرسي ومبارك هي في صالح مبارك, وهذه هي مأساة الثورة المصرية العظيمة.!!..

لأنه يحمد لمبارك مقاومته الإرهاب التطرف والمحافظة علي الدولة المدنية حتي, وان كان مشروع التوريث خطأ والفساد كارثة, لكننا الآن نتعرض لكارثة أكبر هي ضياع مصر علي أيدي الاخوان.

<<ألا تشعر بالخوف من أقوالك هذه؟.

<اعتقد أن حياتي الآن هي وقت اضافي منحه الله لي, فقد مت مرتين من قبل, , استمرت العملية ١١ ساعة لتغيير صمامين وثلاثة شرايين في القلب بعد أن كنت تهبأت تماما للرحيل. ومن يواجه الموت لا يخاف منه وقد واجهت الموت مرات عديدة عندما كنت مراسلا حربيا, وفي أحد المرات كنت أقف أمام أحد أصدقائي الذي كان جالسا وعرض أن أجلس مكانه, وصمم علي ذلك, ولكنني رفضت, وفجأ أصابته شظية وتوفي في الحال.

مقالات متنوعة للغيطانى

مذبحة الصحفية الصامتة

عبرت المقالة المهمة التى كتبها الصديق الدكتور محمد شومان السبت الماضى دون أن يتوقف أمامها أحد أو يناقش ما ورد فيها حول مذبحة الصحافة التى جرت وتجرى بهدوء مكين. لم يتصد لها أحد لأسباب عديدة أهمها ضعف الصحفيين أفراداً وجماعات وفى المقدمة النقابة التى لعبت قيادتها السابقة دوراً رئيسياً فى المذبحة بالتنسيق مع مجلس الشورى، المالك الاسمى للصحف القومية، ما جرى ويجرى مع القضاة ثم مع الصحفيين المتهمين بإثارة الضجيج حول اللاشىء وإخفاء الإنجازات لم يقدروا على لفت النظر إلى قضاياهم وما جرى لهم، لقد جرى إقصاء كفاءات نادرة وطاقات كبيرة بمجرد بلوغهم الستين، هذا الرقم الذى يتم استغلاله لإبعاد الفئات التى يجرى استئصالها أو تطويعها، وأهمها الآن الصحفيون والقضاة. سن الستين لم يعد نقطة للتقاعد مع تقدم وسائل العناية بالصحة وارتفاع مستوى الأعمار، لاحظت فى مختلف دول العالم تقدم هذا المعدل إلى السبعين، كانت دور الصحف، خاصة القومية، تنهى الخدمة عند الستين ثم يجرى المد حتى الخامسة والستين فى كل عام، كان العرف الراسخ هو سن الخامسة والستين وترك الأمر بالنسبة للأسماء الكبيرة والخبرات النادرة فيما يتعلق بالمد بعد الخامسة والستين. إن تكوين الكتاب من ذوى المصداقية والمكانة عملية طويلة ومعقدة، هل كان من المعقول إنهاء خدمة توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، ومحمد زكى عبدالقادر، وكبار الصحفيين الذين تتلمذنا عليهم؟! لقد جرى إخراج

العشرات من أكفأ الخبرات بمجرد بلوغهم الستين خلال الشهور الأخيرة، وهنا يجب التوسع فى شرح ظروف المرتبات والدخول فى الصحافة. القوى المعادية للإعلام فى السلطة تصور الأمر وكأن الصحفيين من أصحاب الملايين، يتحدثون عن مرتبات بالملايين والسكن فى قصور ومنتجعات، الحقيقة أن من ينطبق عليهم ذلك عدد قليل جداً لا يتجاوز أصابع اليدين، إذا دققنا، ودخولهم المرتفعة ليست من الصحافة المكتوبة ولكن من الصحافة المرئية من التليفزيون، وربما انعكس الوضع المختل فى المجتمع على الصحف القومية بشكل مركز وعنيف، فطوال العقود الأخيرة يوجد على قمة المؤسسات عدد محدود جداً النظام راضٍ عنه بغض الطرف عن مخالفاته فى مقابل ضمان الوضع وإبداء الولاء، أصبح عدد قليل من المليونيرات غير أن متوسط دخول كبار الصحفيين كان أقل من أن يكفل لهم الحياة العادية لذلك اضطر الكثيرون منهم إلى الكتابة فى صحف أخرى معظمها عربية أو العمل فى التليفزيون ليس للادخار أو تكوين الثروة بل لضمان الستر فى حده الأدنى، يمكن القول أن متوسط الدخل، بعد خدمة تمتد إلى ما يقارب النصف قرن، حوالى خمسة آلاف جنيه، لا أتحدث عن الصحفيين فى المراتب الوسطى لكن عن الكبار جداً، هذا هو دخل أنيس منصور والسيد يس وأكبر شاعر عربى معاصر أحمد عبدالمعطى حجازى، الذى كان يجب أن يُكفل له وضع يحقق له التفرغ لشعره بدلاً من استنزاف طاقته فى المقالات. ماذا يحدث عند الإحالة إلى الستين؟ ينزل المرتب إلى قيمة المعاش «ألف ومائتى جنيه فقط»، مع انتهاء إمكانية العلاج أو الانتقال بسيارات المؤسسة، وانقطاع جميع الخدمات، يحدث هذا لكبار

الأسماء، يواجه هؤلاء المستبعدون قسراً الحياة دون أى عدة أو إمكانيات فى ظروف تقدم العمر وضيق الإمكانية واشتداد العلل وتعاظم تكاليف الحياة. طوال الفترة الماضية كنت التقى بوجوه أفنى أصحابها أعمارهم، منهم أصحاب خبرات نادرة، القلق يعتصرهم وعيونهم حزينة بعد أن تم استبعادهم بقرارات من زملاء لهم يتلقون تعليماتهم من مجلس الشورى، التابع للجماعة، يجرى هذا الإقصاء الخطير المتقنع باللوائح فى صمت وفى النفس حديث طويل جله مر.

ميليشيات موازية

الوطن :الأربعاء ٢٤-٠٤-٢٠١٣ | ١٠:٠٣PM

مر أكثر من أسبوعين على نشر هذا الخبر الخطير ولم يتوقف عنده أحد. مر هذا الخبر بما لا يتوازى مع خطورته، «لجنة المحروقات بحزب الحرية والعدالة أعدت كميناً قرب نفق الشهيد أحمد حمدى وضبطت كمية سولار كبيرة مهربة إلى غزة». جيد ضبط السولار المهرب ولكن كانت صحة الموقف ستكتمل لو أن الداخلية أو الجيش أو أى مؤسسة أمنية تابعة للدولة المصرية هى التى قامت بالضبط، أما لجنة تتبع حزباً فهذا يعنى أن عصر الميليشيات بدأ، إضافة إلى دلالات أخطر، متى تكونت هذه اللجان؟ من هم الأعضاء؟ أى تسليح يملكون؟ إن معنى «كمين» دال على أفراد مدربين وأسلحة متطورة، وإذا كان اسم اللجنة التى قامت بالضبط لجنة المحروقات فهل يعنى هذا وجود لجان أخرى لنواحى النشاط المختلفة؟ اللجنة تابعة لحزب الحرية والعدالة الحاكم، ماذا لو ظهرت لجنة أخرى تتبع الوفد أو حزب النور أو أى حزب آخر، تضم مدربين وتحمل سلاحاً؟ ومع تعدد الميليشيات وخطورة ظهور الاحتكاك بينها وبين أطراف أخرى سيظهر العنف المنظم وغير المنظم، تلك خطورة الميليشيات المسلحة التابعة لأحزاب أو جماعات أو أفراد وقيامها بمهام مؤسسات الدولة. لم تعرف مصر ظاهرة الميليشيات الخاصة إلا فى العصر المملوكى الثانى، عندما أصبحت مصر ولاية عثمانية تتبع إستانبول وأصبح لكل أمير جيشه الخاص. وانتهى الدور الحافظ للدولة وبدأ تحللها إلى أن وصل الحال إلى

الاقتتال المستمر، وأصبح ذلك معتاداً فى القاهرة، وكانت جثث الضحايا تظل ملقاة لأوقات طويلة حتى يتصدق البعض بدفنها. أى بديل لدور الدولة يعنى تثبيت الفوضى وبدء الطريق إلى الحرب الأهلية، كل الصراعات العنيفة تبدأ هكذا، خلخلة الدولة، تقويض مؤسساتها ثم دخول العصابات البديلة التى ترفع شعارات أيديولوجية، وهذا ما جرى فى سوريا التى أدت ظروفها إلى دخول جيشها القوى طرفاً فى الصراع، وهذا ما حمى الجيش المصرى بلادنا منه. إن المأساة المروعة التى تعيشها سوريا الآن والتى يقف العالم متفرجاً عليها بدأت بمجموعات أصغر من اللجان التى قرأنا عنها ثم استشرت كالنار فى الهشيم. ما يجب أن نحول دون ترسيخه تلك الأدوار البديلة للدولة وبدلاً من إنشاء لجان الضبط والكمائن بواسطة حزب الحرية والعدالة عليه أن يدعم وزارة الداخلية لمساعدتها على العودة إلى دورها الأساسى فى منظومة الدولة، ولكن من الواضح أن الوزير الحالى يمكن الجماعة من الوزارة. يوم الجمعة الماضى رحت أتابع معارك الشوارع بين ميليشيات الإخوان التى ظهرت أولا فى شكل عسكرى، سواء من ناحية التكتيكات أو المظهر، حيث رأينا لأول مرة شبابا يحيطون رؤوسهم بعصابة خضراء مثل قوات الحرس الثورى الإيرانى. وكل هؤلاء يقومون بهجمات شرسة ضد الشباب الذى تظاهر ضد محاولات إسقاط القضاء وضد الكتاب والصحفيين وكان الاعتداء الوحشى على الكاتب والصحفى نبيل زكى الذى كاد يلقى حتفه على أيدى هذه الميليشيات. هناك قوة عسكرية إخوانية موازية للجيش يجرى التوسع فى بنائها الآن وهذا خطير، خاصة أن كل الوقائع تدل على علاقات وثيقة بين الجماعة الحاكمة فى مصر وحركات

سياسية لها أجنحة عسكرية تدخلت فى مصر خلال وقائع لا تزال ملفاتها مفتوحة، مثل إطلاق السجناء فى يناير أثناء الثورة واغتيال ستة عشر جندياً من رجالنا فى رفح، إلى جانب الاشتباك الذى جرى خلال هذا الأسبوع شرق العوينات. وجود ميليشيات ذات صفة عسكرية موازية للجيش بداية طريق طويل سيؤدى إلى المصير السورى أو الصومالى دون أى مبالغة يجب إيضاح الحقيقة حول هذه الميليشيات ومنعها تماماً من الوجود والنمو.

زول وطلوع

الوطن : الخميس ١٨-٠٤-٢٠١٣ | ٠٨:٤٧AM

أحياناً ما تكون اللغة أكثر دلالة على جوهر الوجود أكثر من أى عنصر آخر، فى الفترة الأخيرة تتكرر هذه العبارة: «تفتكر الجيش حينزل إمتى؟». لا أذكر أننى سمعت هذه العبارة خلال ستين عاماً عشتها بكامل وعيى كان الجيش مرتبطاً بالحدود، بالصحارى المحيطة، بالأعداء من الخارج، لذلك كان اللفظ المعبر هو الطلوع للتحرك نحو الحدود الشرقية أو أى اتجاه آخر يمثل تهديداً، الطلوع للعدو الخارجى، والنزول للعدو الداخلى، النزول أقل أهمية رغم أنه أخطر؛ لأنه استثناء، فليس من حركة الجيش الذهاب إلى عكس مهامه، عكس اتجاهه، إذا تحرك الجيش فالمنطق أنه يمضى إلى الأمام «يطلع»، يطلع من المدينة إلى الصحراء، من المعسكرات إلى الواقع، لذلك كانت أماكنه دائماً على الأطراف، بعيداً عن الزحام الإنسانى والتكدس البشرى، من أكثر الأماكن التى تكشف عندى الإحساس بالأبدية، بالحدود اللانهائية للوجود، بعض معسكرات الجيش النائية، خاصة فى الهايكستب والصحارى البعيدة، أذكر عندما خرجت من أنشاص، مقر قوات الصاعقة، فى طوابير سير كانت تمتد لمئات الكيلومترات أن التعبير المستخدم هو الطلوع، «حنطلع الصحراء الليلة»، «هيطلع إمتى الطابور»، الآن يتساءل الناس: «تفتكر الجيش حينزل إمتى؟». النزول يعنى أن المقصود فى المكان الأعلى، الأرفع، كناية عن موقع الجيش «الجيش حينزل ولا لأ». النزول إلى الداخل، أخطر الأعداء من كان فى الداخل، من

يأتى من الخلف، فما البال بمن يأتى من القلب، من الصميم، هذا هو الوضع الاستثنائى جداً الذى يواجهه الجيش المصرى، آخر خط فى الدولة المصرية مع المؤسسات الأمنية القومية مثل المخابرات العامة والمخابرات الحربية ومخابرات الحدود، هل سمع أحد عن مخابرات الحدود؟ إنه أقدم تشكيل عسكرى على مستوى العالم نستطيع أن نلمح جنوده على جدران المقابر الفرعونية، كان الواجب الأول الذى يقسم الفرعون على احترامه فى العالم الآخر، أنه صان الحدود وحقق العدل، كان الفراعنة محاربين أشداء عدا أخناتون الذى وضع بذرة النهاية لحضارة عظيمة وسوف أفسر ذلك، أما هذه الفترة فإننى منشغل بالجيش المصرى وأول وضع استثنائى يواجهه، فلأول مرة يصبح العدو المتآمر من صميم الداخل، بل من داخل الداخل، الوثائق المنشورة فى «الجارديان» تسربت من مواقع رسمية تمت تسميتها فى سائر وسائل الإعلام، أين الحدود الفاصلة فى السلوك، أين الحدود، أين؟ إذا فرطنا فى الحدود المعنوية فإننا نفرط فى الحدود الجغرافية والتاريخية، لا أدرى أى المصطلحين نستخدم مع هذا الوضع الجديد، الطارئ، «مواجهة الجيش لداخل الداخل» هل يجب الطلوع أم النزول؟ فلنتأمل الأوضاع والملامح فى الصور ونتوقف كثيراً عند وحول وأمام وخلف. طلوع أم نزول؟ متى وأين؟ الآن ليس أمامنا إلا السؤال والانتظار.

حول الكاتدرائية

الوطن : الخميس ١١-٠٤-٢٠١٣ | ٨:٣٦AM

ما جرى فى محيط الكاتدرائية المرقسية السبت الماضى تطور خطير جداً فى مسار الفتنة الطائفية. فى حدود ما قرأته فى التاريخ لم يحدث اعتداء على الكاتدرائية فى أى وقت أو أى عصر. عندما دخل عمرو بن العاص كان المقر البابوى فى المكان الذى شيد فيه حى الباطنية بعد دخول الفاطميين وتأسيس القاهرة، أكثر من أحد عشر قرناً ظل المقر فى مكانه، وبعد تأسيس الأزهر لم يتغير شىء، وما زال موضع المقر حى اليوم فى عمق الباطنية، وفى إحدى حواريها مجمع كنسى ضخم يضم كنيسة العذراء -حيث المقر البابوى القديم- وكنيسة الأمير تدارس الشطبى، ودير الراهبات، المكان يقع على مسافة أقل من مائتى متر من الأزهر. انتقل المقر البابوى إلى منطقة الأزبكية قبل وصول الحملة الفرنسية، وظل بها حتى الستينات عندما أصبح فى العباسية، حيث الكاتدرائية الضخمة، التى أسست فوق دير عريق، دير الأنبا رويس، وقد أهدى الرئيس جمال عبدالناصر الأرض إلى الكنيسة القبطية، وأسهم فى البناء. طوال تلك العهود لم تندلع نيران الفتنة حول المقر البابوى الأقدم على الإطلاق فى العالم، السبت الماضى شهدت مصر نقطة تحول خطيرة، عندما قام أشخاص -واضح أنهم مدربون- بالهجوم على جنازة ضحايا الفتنة فى قرية الخصوص بالقليوبية، نلاحظ تطور العنف فى مصر إلى مستويات غريبة، مثل سكب البنزين على شخص عابر وإشعال النيران فيه، جرى هذا

على مرأى من كاميرات التليفزيون فى مواجهة الكاتدرائية. أخطر ما شاهدته اشتراك أفراد يرتدون الزى الرسمى للشرطة فى المعارك الدائرة. الهجوم على جنازة جديد على تقاليد المصريين. واضح أن تقاليد راسخة تهتز وتختفى مع المخططات المدبرة التى تشهدها الدولة خلال المرحلة الانتقالية التى تتحول فيها طبيعتها. ما نراه من عنف طائفى غير مسبوق قد يؤدى إلى حرب أهلية نتيجة تغيير طبيعة الدولة التى تأسست زمن محمد على باشا، واستقرت لقرنين من الزمان، حتى صعود جماعة الإخوان التى تعمل تحت غطاء الدين وبدء تدميرها للدولة المدنية، لدولة القانون. ما جرى من اعتداء على كاتدرائية مار مرقس متسق مع اقتحام مشيخة الأزهر، وتهديد شيخه، وحصار المحكمة الدستورية، ومدينة الإنتاج الإعلامى، كما قلت أول يوم بعد إعلان الانتخابات الرئاسية، كما كتبت فى يوميات الأخبار «وداعاً لمصر التى نعرفها». الدولة المصرية الحافظة للكيان تتفكك من الداخل بعد أن سيطر عليها تنظيم عالمى أممى لا يؤمن قادته بوطن أو حدود أو انتماء، كانت حدود مصر المسئولية الأولى لكل من حكموا هذا البلد منذ فجر التاريخ وحتى ما قبل اعتلاء الدكتور مرسى الذى تؤكد الأنباء أنه أعطى وعداً لـــ«البشير» حول «حلايب وشلاتين». إننى أميل إلى تصديق المرشد السابق الذى يبدو أنه يقوم بدور بالونة الاختبار، فيطلق التصريحات الدالة ببساطة وعفوية كأنه لا يقصد أو لا يعى، لكن أثبتت الأيام أنه الأصدق. إغلاق التحقيق فى قضية شهداء رفح تم بتعليمات رئاسية عليا، ما اسم هذا التصرف؟ بماذا نصفه؟ الهجوم على أكبر رمزين دينيين فى مصر جرى خلال أسبوع واحد، استباحة مشيخة

الأزهر، والتعريض بشيخه الأجل، فى نفس الوقت كان الدكتور مرسى يقوم بزيارة الطلبة الذين تسمّموا من الوجبات دون أن يُدعى شيخ الأزهر المسئول الأول عن المؤسسة، وهذا تصرّف غير لائق ليس له إلا معنى واحد، إهانة الإمام الأكبر الذى تستهدفه الجماعة. الهجوم الثانى جرى على الكاتدرائية. الأزهر والكاتدرائية لم يمسا إلا فى زمن الإخوان، إن مصر التى نعرفها تتحلل، تتفكك، وكل ساعة يمضيها الإخوان فى الحكم تقربنا من الهلاك المحتوم. ما جرى للأزهر، للكاتدرائية، للقضاء، للإعلام، ما يجرى للجيش، للمخابرات، ما لحق الشرطة، خطى واسعة لهدم الدولة وتمكن العصابات من مهد الحضارة.

أوستراكا

الأربعاء ٠٣-٠٤-٢٠١٣ | ١٠:٠٠PM

لم يتوقف المصريون يوماً عن السخرية من حكامهم، حتى خلال العصور القديمة، التى كان الملك فيها له صفة مقدسة باعتباره منحدراً من نسل حورس الابن لكل من إيزيس رمز الأمومة الكونية وأوزير الأب المُستشهد فى صراعه ضد رمز الشر شقيقه ست، وهو سيد العالم الآخر، وقاضى المحكمة الأخروية التى يوزن فيها القلب حيث يوضع فى كفة وريشة ماعت فى الكفة الأخرى، فمن خفت موازينه يمضى مبرءاً إلى حقول يارو، أول تصور إنسانى للجنَّة الأبدية، ونجد لها تخيلاً واضحاً فى مقبرة سنجم رع، أحد الفنانين الذين كانوا مكلفين برسم القبور الملكية فى وادى الملوك.. لقد رسم لنفسه لوحة رائعة بعد دخوله الجنة التى سيقضيان بها إلى الأبد، عناصر اللوحة مستمدة من الطبيعة المصرية، حيث النهر، والزرع متعددة أشكاله، والأمن، والسلام. عندما قرأت العبارة المكتوبة بالخط الهيروغليفى تأثرت، تقول: «أرض.. ليس فيها أعداء..»، رغم هيبة اللوحات فى وادى الملوك التى يغلب عليها الطابع الدينى، إذ تجرى حول مثول ملوك مصر فى الآخرة للحساب، ومرورهم بالمراحل المتعاقبة التى تسبق دخولهم الجنة، وفى مقابر النبلاء، أى الموظفين الكبار، ورجال الملك، نجد مشاهد الحياة اليومية، من رقص وغناء وطعام وشراب وتقديم قرابين وصيد وعمل وممارسة حرف، فى مقابر وادى الملوك قداسة ورهبة، فى قرية الفنانين ومقابر النبلاء مشاهد الحياة

اليومية، هؤلاء الفنانون هم من يرسمون الجدران، حيث يبدو حكام مصر فى أشد اللحظات تبجيلاً.. ولكن كشفت الحفريات الأثرية عن تصور آخر تماماً لدى المصريين لحكامهم، وتجسد ذلك فى قطع الخزف المعروفة بـ«الأوستراكا»، التى عثر عليها فى قرية الفنانين المعروفة باسم «دير المدينة»، التى اكتشفها الفرنسيون عام ١٩٠٣، هذه القطع تعد من آيات الفن الإنسانى؛ إذ أبدع المصريون عليها فى لحظات تحرر نادرة أجمل الأشكال الفنية دون رقابة الكهنة، دون قواعد سابقة، دون قيود.. لذلك عبروا من خلال هذه القطع الصغيرة عن أدق شئونهم وآرائهم ومعظمها ساخر، يحتفظ تورينو بقطعة «أوستراكا» عليها قط يلاعب الفأر، بينهما لوحة للعبة الضامة، التى تعتبر أصل الشطرنج، وما تزال فى الصعيد معروفة بالسيجة، لعله الكاريكاتير الأقدم فى العالم، الذى ينطلق من فكرة المتناقضات، لكن تتجسد الرؤية الخفية للحكام فيما رسمه الفنان المصرى القديم ليلاً لحكامه، يتجسد ذلك فى قطع «الأوستراكا» التى تحمل مشاهد فاحشة للملكة حتشبسوت مع وزيرها وعشيقها «سنموت» أحد عباقرة العمارة فى العالم، وهو من أنشأ الدير البحرى، أحد أجمل معابد العالم. حيرنى ذلك فى النهار يرسم الفنانون الملكة فى المقابر متشحة بالهيبة، وفى الليل يبدعون فى السخرية منها، لعله أقدم أشكال السخرية السياسية فى العالم، السخرية أحد العناصر الأساسية فى رؤية المصريين لحكامهم، ولا يمكن التأثير فيها سلباً أو إيجاباً.

منع

الأربعاء ٢٧-٠٣-٢٠١٣ | ٠٧:٥٧PM

يتوسع النائب العام المعين من الدكتور مرسى فى قرارات المنع من السفر، والحق فى الانتقال من حقوق الإنسان إلا إذا كان مداناً بحكم قضائى، هذا ما تقضى به الأحوال فى العصر الحديث الذى يبدو واضحاً أننا نخرج منه ونرتد عما تحقق لدينا منه بأسرع مما يتصور إنسان، وبما يتناقض مع حركة التاريخ، نرتد إلى المراحل المعتمة من العصور الوسطى، عندما لم يكن يوجد قانون، مصر التى دخلت زمن الحداثة قبل بعض دول العالم الكبرى مثل الهند واليابان ترتد الآن إلى دولة المزاج والتربص الشخصى والهوى، الدلائل كثيرة لكن أبرزها المنع من السفر، أحدث القرارات تتعلق بخمسة من قادة الثورة الحقيقيين، ومن الشباب الذى بدأت تلوح من صفوفه قيادات جديدة يتأكد حضورها يوماً بعد يوم ليتسق مع الواقع المتجدد، لم تصدر قرارات اتهام بعد، مجرد بلاغ الآن من محام مبتدئ يضع أى مواطن فى قوائم المنع إذا كان على غير هوى الإخوان، أما إذا قامت الجماعة بالإبلاغ عن أسماء بعينها، فهذا يعنى قراراً مفروغاً منه، قبل أحداث المقطم أصدر النائب العام قراراً بمنع واحد وعشرين من رجال الأعمال الكبارَ، معظمهم عرب، والأغلبية من السعودية، أحدهم يوظف فى مصر أكثر من خمسة مليارات دولار، مشاريعه واضحة واستثماراته ملموسة ثابتة، بدلاً من الإشادة بما قام به هو وأمثاله واستمراره فى الوقت الصعب الذى تقترب فيه مصر من كارثة اقتصادية

يُمنع من السفر دون اتهام محدد، دون إدانة قضائية نهائية، القضاء ألغى قرار النائب العام بعد أربعة أيام، كان الهجوم على المستشار عبدالمجيد محمود له منطلقات عديدة مغرضة، منها أنه لم يبذل جهداً فى استرداد الأموال المهربة إلى الخارج، وحتى الآن لم تلح أى بادرة، رغم وجود نائب عام معين عسفاً من الدكتور مرسى، والطريقة التى جاء بها تُفقده المصداقية، السبب الحقيقى أن الدول التى تحترم القانون تشترط صدور أحكام قضائية نهائية حتى يمكن النظر فى أمر رد الأموال المهربة، كثير من الأسماء التى مُنعت من السفر على استعداد لدخول المعتقل فى مصر وعدم البقاء فى الخارج، ولو أن بعضهم فى الخارج لعادوا إلى مصر ليواجهوا أى اتهامات، المنع من السفر عسفاً يتجاوز فى بشاعته الاعتقال، التأخر فى تحديد المواقف النهائية مع تعدد الاتهامات المرسلة عصف بالقانون، يوماً بعد يوم تتضخم قواعد المنع وترقب الوصول، يوماً بعد يوم تتحول مصر إلى معتقل كبير، فى العصر المملوكى عندما كان القانون مرهوناً بمزاج السلطان، كان يتخذ من القرارات ما يشاء طبقاً لحالته المزاجية، فإذا استيقظ يوماً مهموماً كدراً لعلة فى الجسد مثل ألم فى المعدة أو غازات فى المصارين فيقرر أن يطيح برأس أول من يدخل عليه، ويُكثر المؤرخون خاصة من استعمال عبارة «وفى تغير خاطر السلطان عليه»، جرى ذلك مع أقرب المقربين، فى لحظة معينة يكتشف السلطان أن ملامحه مزعجة فيتغير مزاجه، عندئذ يقرر اعتقاله وتوسيطه «أى شطره إلى نصفين» أو إعدامه بشك الباذنجان، أى خوزقته عبر الخصر، وقبل ذلك كله بالطبع المنع من السفر.

كتابة بالقوة

الخميس ٢١-٠٣-٢٠١٣ | ٠٨:١٩AM

من أعقد الأمور ظهور كاتب له مصداقية عند القراء، يتجاوز الأمر نمو الكائن الحى، إذ يمكن تحديد المراحل التى يمر بها الإنسان سواء من الناحية البيولوجية أو النفسية، لكن استمرارية الكاتب ورسوخه من الأمور شديدة التعقيد وترتبط بمواقفه وتكوينه وإيقاعه النفسى والفكرى، ومن الأمور التى تعانيها مهنة الصحافة خلال العام الأخير ظهور عدد كبير من الكتاب فى الصحف الوصيفة، كل مؤهلاتهم الانتماء إلى حزب الحرية والعدالة، أو الانتساب لفترة إلى مؤسسة تابعة للجماعة، المتحدث الرسمى باسم رئاسة الجمهورية أصبح كاتباً كبيراً بالمساحة فى أعرق الصحف، تطل علينا صورته المهمومة شأن كبار المفكرين بميل يحاكى فيه وضع صورة الشاعر الكبير أحمد شوقى الذى تسبب فى انتشار هذا الوضع الذى يحاكيه فيه كل من هب ودب، أعنى إسناد الرأس إلى راحة الكف والاتجاه بالنظر إلى حيث لا يمكن التحديد، يحتل ياسر على مساحة كبيرة فى نفس الوقت الذى تم فيه إقصاء أكبر شاعر عربى معاصر من كتابة مقاله الأسبوعى الذى اضطر إلى الهجرة به إلى «المصرى اليوم»، الحجج فى الإقصاء عديدة؛ منها بلوغ السن، وقد تم إخراج عدد كبير من ألمع الصحفيين بمجرد وصولهم إلى سن الستين، رغم أن الجمعية العمومية للصحفيين اتخذت قراراً باستمرار خدمة الصحفيين إلى سن الخامسة والستين، وتلك مشكلة أرجو أن يوليها النقيب المحترم، ضياء رشوان،

عنايته، خاصة أن ثمة عملية انتقائية جرت، أى أن الأمر لم يتم وفقاً لقواعد محددة، مشكلة تيار الإخوان وفصائل الإسلام السياسى أنها لم تفرز مبدعين كباراً نتيجة التربية الفاشية داخل تلك التنظيمات التى تقتل كل ملكة إبداعية وتحول البشر إلى آلات صماء، لم يكن الأمر فيه إقصاء والدليل أن بعض الكتاب المنتمين إلى هذا التيار ومعظمهم من المتحولين، أى كانوا ينتمون إلى تيارات أكثر انفتاحاً وتكونوا بالفعل قبل التحاقهم، لكل أسبابه، بتيار الإسلام السياسى، هؤلاء كان لهم وجود لأنهم كتّاب بالفعل جرى نموهم الطبيعى وحققوا وجودهم من خلال شروط الكتابة ذاتها وليس بقوة السلطة، السلطة مهما كانت لا يمكن أن تفرض كاتباً على القراء، من بين ثنايا الكتابة تفوح رائحة التحول والتقلب والحقد والرغبة فى الحضور بدون مقومات وكل هذا يبدو فى ثنايا الكتابة، الممارسة عملية ترشيح وانتخاب مستمرة، لقد ؟؟؟؟؟ بعض الصحف القومية بكتّاب أطلوا علينا، بعضهم ملتحٍ، وبعضهم من ضيوف برامج التوك شو التى تحرص على حضور المنتمى إلى التيار المسيطر لتحقيق التوازن وضمان السلامة، فى الصورة المرئية يمكن تحمل ضيف غير مرغوب فيه، خاصة أولئك الذين يتقنون فنون المراوغة والإجابة عن السؤال بطرح عشرة أسئلة، يمكن تجاهله فى إطار وجود آخرين، ولكن فى الكتابة لا يمكن لقوة مهما بلغ شأنها أن تجبر قارئاً على إتمام مقال، عندما تولى الأستاذ محمد حسنين هيكل «الأهرام» لم يستكتب إلا كاتب عمود واحداً فقط وهو الأستاذ أحمد بهاء الدين، الآن ينشر فى الصحف المصرية بكل اتجاهاتها صباح كل يوم حوالى ألف ومائتى عمود، أصبح كتاب الأعمدة أكثر من الصحفيين

المحترفين، ولن يكتمل الكاتب الحقيقى إلا من خلال ؟؟؟؟؟؟ حرب لا قهر فيه ولا إجبار على السمع والطاعة. من الطبيعى أن نطالع هؤلاء فى صحف الحرية والعدالة، أما محاولة فرضهم بالقوة على المنابر العريقة التى من المفروض أن تتسع للجميع وللأفضل من أصحاب المواهب الحقيقية فهذا هو المستحيل عينه.

توكيلات الأمة

الخميس ١٤-٠٣-٢٠١٣ ٠٨:٠٥AM

يستعيد الشعب المصرى العظيم خصوصيته النضالية ويحيى تقاليد مر عليها عشرات السنين، ومن ذلك التوكيلات التى بدأت مع سريان العصيان المدنى فى بورسعيد ومع بدء تصدع الدولة وظهور الميليشيات الدينية أول خطوة فى اتجاه الحرب الأهلية والتى إذا بدأت سيكون ما جرى فى لبنان والصومال وسوريا مجرد نزهة، يجب ألا ننسى أننا تسعون مليوناً سيتصارعون على رغيف الخبز بعد أسابيع بعد نفاد الاحتياطى النقدى الذى تكون فى زمن الرئيس السابق ولم يستطع الحشد الإخوانى إضافة أى مبلغ إليه كيف والخطط معدومة والرؤية مفقودة ومصر لا تنتج على أى مستوى، فى مواجهة لواح الخراب التاريخى يلجأ الشعب إلى ميراثه حتى وإن لم يع ذلك، من هنا تبلورت ظاهرة التوكيلات للجيش وقائده العام، الفريق أول عبدالفتاح السيسى، لحث المؤسسة الوحيدة القوية على التدخل لوقف التدمير المنظم المقصود للدولة، يذكرنى إقدام المواطنين على ذلك بما سبق الثورة العظمى ضد الاحتلال البريطانى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عندما اتفق عدد من وجهاء الأمة على الذهاب فى وفد إلى المعتمد البريطانى، أى المندوب السامى، بهدف التفاهم على الاستقلال وإنهاء الاستعمار البريطانى، عندئذ تساءل المندوب السامى بغطرسة: من تمثلون؟ وبأى حق تتحدثون؟ عندئذ خرج الوفد برئاسة الشخصية الأعظم فى تاريخنا المعاصر، سعد زغلول، وبدأت حملة شعبية أسطورية لجمع

التوكيلات، وصف لنا أستاذنا نجيب محفوظ هذا الحال فى ثلاثيته بين القصرين عندما أقدم السيد أحمد عبدالجواد على التوقيع موكلاً الوفد بإجراء ما يلزم لاستقلال مصر، لم يلجأ الناس إلى الشهر العقارى لتوثيق التوكيلات، كما فعل أهالى بورسعيد والمحافظات الأخرى. ومن هذه الخطوة البسيطة اندلعت شرارة الثورة المصرية العظمى ومن رحم مصر ولدت زعامة سعد زغلول الشعبية وتحول البشر إلى أسطورة، شعبنا العظيم استدعى بلا وعيه ومن خلال ذاكرته الجمعية موضوع التوكيلات ليس لشخص بعينه أو حزب معين أو اتجاه سياسى إنما للجيش المؤسسة الوحيدة القادرة على حماية الدولة المصرية المدنية التى تستخدم الجماعة كل السبل المشروعة وغير المشروعة لتقويضها، إن حركة الشعب لجمع التوكيلات شكل ناجع لو اتخذ منحى أشمل فى الداخل والخارج بحيث يصبح ظاهرة عامة يمكن من خلالها تكوين قوة ضغط هائلة لوضع حد للنظام الإخوانى الذى يهدم الدولة المصرية الآن، وعند تعديل الدستور يجب أن يتضمن مادة تنص على تدخل الجيش لمهمة محدودة المدة توقف أى تجاوز ضد الدولة المصرية بهدف تشويه مؤسساتها أو تغيير هويتها وطبيعتها المدنية، التوكيلات إبداع مصرى خالص وتقليد سلمى يحمى الدولة والشعب معاً.

سكة سوريا

الأربعاء ٠٦-٠٣-٢٠١٣ | ٠٧:٥٩PM

للأسف يبدو أننا دخلنا بالفعل سكة سوريا، ليس بالخطأ ولكن كل الدلائل تشير إلى تدبير من الداخل والخارج. أما نقطة البداية فتلك الرصاصات التى استقرت فى جسد العقيد قائد تشكيلات الجيش فى بورسعيد، مصدر الطلقات حتى الآن ما زال مجهولاً، بينما الشائعات القوية تتردد بلا هوادة حول انضمام ميليشيات مدربة إلى صفوف الشرطة والمقصود بالطبع ميليشيات الإخوان، بل إن الإعلامية ريم ماجد فى برنامجها المهم على قناة «أون تى فى» ذكرت أن مدير الأمن الوطنى الآن -مباحث أمن الدولة سابقاً- عضو بجماعة الإخوان المسلمين، كذلك قائد الأمن المركزى، وكلاهما برتبة لواء، قالت ما يتردد وراحت تنادى: «حد يصحح.. حد يرد علينا»، وحتى كتابة هذه السطور لم يصدر أى رد فعل من إدارة الإعلام التى لم يكن اللواء هانى عبداللطيف يترك شاردة أو واردة تخص الداخلية إلا ويبادر فوراً بالرد. فى الوقت نفسه تتصاعد المظاهرات فى محافظات تاريخية مهمة واستراتيجية، يدخل العصيان المدنى المتحضر فى بورسعيد أسبوعه الثالث، الشهداء يتساقطون بغزارة تنفيذاً لسياسة وزير الداخلية الجديدة، التى تتجاوز الآن كل سياسات العنف المعروفة من قبل، قناصة العيون عادوا للظهور، أعداد الشهداء تتزايد، إنه الدم فى بر مصر، والدم لا يجلب إلا الدم، بينما يجرى استدراج الجيش إلى المواجهة وبالتحديد فى بورسعيد، أحد الأهداف الرئيسية الآن للقوى التى تعمل

لتفكيك الوطن تلويث الجيش بدماء شعبه. لنعد إلى سكة سوريا، كان المساس بجيشها يبدو ضرباً من اللامعقول، جيش قوى لديه خبرة قتالية عميقة، حارب إسرائيل، وقد وصلت إلى الجبهة السورية ونيران الهجوم الإسرائيلى المضاد لم تهدأ بعد، روح حماسية عارمة، وعندما بدأت الأحداث الحالية كانت مجرد عمليات صغيرة جداً.

بدا الأمر وكأن ناموسة صغيرة تحاول أن تؤذى فيلاً ضخماً، غير أن الناموسة راحت تكبر وتكبر والظروف تتعقد إلى أن وصل القتال الشرس إلى قلب دمشق، بينما الدولة السورية تتهاوى، هناك طبيعة النظام وغباؤه ساعدا على تطور الظروف إلى الأسوأ. هنا يختلف الأمر فالهدم يجىء من الداخل، والهدف الرئيسى مؤسسات الدولة خاصة القوية، وبالأخص والأهم الجيش، الجيش المصرى الذى يقف الآن من أقصى الغرب إلى الشرق باعتباره القوة العسكرية الوحيدة التى ما تزال منضبطة وقادرة بعد زوال الجيوش القوية خاصة العراقى والسورى.

على الجانب الآخر تبدو أوضاع الشرطة فى مصر مفزعة، هذا الإفراط فى العنف، فى استخدام الخرطوش، فى التسديد المباشر إلى عيون الشباب. مطلوب بيان رسمى يوضح ما يثار حول تداخل ميليشيات الإخوان بالشرطة. فى نفس الوقت يتدهور الأمن فى البلاد، حركة المرور فى العاصمة مضطربة، الداخلية المحترفة تختفى، والداخلية الطائفية تسفر عن ملامحها. هذا خطأ تاريخى قاتل، ولكن إذا كان المخطط الأبعد تفكيك مصر، أول دولة فى التاريخ، وتحويلها إلى ولاية فى دولة الخلافة المستحيلة، فإن كل ما يجرى يبدو منطقياً، لا يثير الأمل إلا هذه المقاومة الأسطورية للشعب

المصرى العظيم الذى يقف بمفرده ودون قيادة فى مواجهة القتل المنظم والدمار المخطط، الذى يدفع بالوجود كله إلى السكة السورية.

الجيش الضامن

الخميس ٢٨-٠٢-٢٠١٣ | ٠٨:٣٤AM

منذ اللحظة الأولى للانتفاضة الشعبية فى يناير كنت أعى أهمية دور الجيش كمؤسسة وطنية. كل ما كتبته كان يعبر عن ذلك مع بدء اهتزاز الدولة وانهيار بعض مؤسساتها فى الثامن والعشرين من يناير عندما انهارت الشرطة، ومع ظهور الشيخ القرضاوى فوق منصة التحرير تشبهاً بالخمينى بعد عودته إلى طهران ثم انعقاد جمعة قندهار التى رفرفت خلالها الرايات السود لتنظيم القاعدة بدت واضحة طبيعة القوى المنظمة التى تستثمر الانتفاضة التاريخية للشعب المصرى وتسعى إلى استغلالها بعد انصراف الشعب من ميدان التحرير تاركاً خلفه طاقة هائلة بلا إطار أو قائد. من هنا كان الأمر أشبه بمن قام بتفجير نووى ولم يتحكم فيه، فبقى هائماً يتنقل حتى تمكنت قوة من خارج السياق من السيطرة والتوجيه. هذا ما قامت به تيارات الإسلام السياسى، وفى المقدمة منها جماعة الإخوان التى تعبر عن المشروع المناقض للدولة المدنية القائمة. بعد الانتخابات الرئاسية، ونتيجة ظروف عالمية وأسباب محلية، فاز المرشح الإخوانى بأغلبية ضئيلة جداً، وبدأ زحف جماعته لتنفذ مشروعها الذى تعمل من أجله سراً وعلانية منذ ثمانية عقود. لأول مرة يتقلقل وجود الدولة المصرية التى بدأ تأسيسها منذ عصر محمد على. جميع مؤسساتها أصبحت مستهدفة، من الوزارات المتصلة بالحياة اليومية للشعب إلى المؤسسات الوطنية الكبرى وفى المقدمة الجيش. لسنوات طويلة كنا نصغى

إلى القول أن قيام أحزاب على أساس دينى أو عرقى ممنوع. مبدأ هام مطبق فى معظم الدول التى توجد بها تعددية أو أعراق مختلفة. غير أن هذا المبدأ الضرورى لسلامة الدولة بقى معنى هائماً لم يتبلور فى مادة دستورية تقضى بتحويله إلى واقع سياسى ومبدأ.

كان المفروض أن ينص الدستور على وجود قوة تضمن عدم الانقضاض على تحرك مناقض يهدد سلامة الدول،ة وهذا ما بدأ مع تمكن الجماعة ورئيسها من حكم البلاد. لأول مرة تصبح الدولة المصرية مهددة بالتفكك والانهيار، مما يعنى دخول مصر إلى مرحلة مظلمة من الصراعات قد تستمر حقباً طويلة قبل بزوغ قوة تعيد مصر إلى نفسها وسياقها. ما يحول دون السقوط حتى الآن وجود ما تبقى من الدولة المدنية وفى المقدمة الجيش. من هنا كنت أرى الجيش كقوة ضامنة. حتى الآن يقوم الجيش بذلك، والأهم أن الشعب يدرك ذلك بحسه الجماعى التلقائى، وبدون عمل منظم. على الجانب الآخر تصاعدت عصبية الإخوان مع تعمق هذا الوعى الشعبى، وفى مواجهة تماسك الجيش. بلغ الأمر حداً يشبه الجنون عندما صرح عضو قيادى بحزب الإخوان متهماً المجلس العسكرى بقتل الشهداء السبعة عشر فى رمضان الماضى، وحتى الآن لم يحاسب من الحكومة ولا من حزبه. ونعرف أن هذا القول لم يصدر عبثاً إنما هو ترتيب محكم يستهدف المؤسسة العسكرية التى تُعتبر أهم سند للدولة المصرية، وهذا جوهر التناقض. يتصاعد الإحساس الشعبى العميق ضد الإخوان بتأثير عاملين أساسيين، الأول محاولة الجماعة فرض نمط متخلف من منظومة ثقافية متخلفة على شعب متحضر، الثانى فشل إدارة الإخوان فى تلبية

الاحتياجات الأساسية. لا يمكن التنبؤ بما ستصر إليه الأمور فى الشهور القليلة القادمة، خاصة مع تزايد المحنة الاقتصادية، ولكن يجب الوعى بأن الضامن الوحيد الآن للدولة هو الجيش، وهذا ما أدركه الشعب المصرى، وما تجسده حركته الجماهيرية التى تسبق جميع الأطر السياسية الموجودة. ليس الأمر تحريضاً على انقلاب عسكرى. هذا غير وارد، ولكنها محاولة لإنقاذ ما تبقى. وبعد تقويم الخطأ التاريخى القائم وصياغة دستور جديد يجب الوعى بالنص فيه على ضرورة ألا يقوم أى حزب على أساس عرقى أو دينى، وأن يضمن الجيش ذلك. الاستنجاد بالجيش من شعبه ليس انقلاباً، لكنه دعوة للحفاظ على الوجود عند لواح الخطر الجسيم.

نزوح

الخميس ١٤-٠٢-٢٠١٣ | ٠٨:٠٢AM

فى الولايات المتحدة وفى عدة بلدان أوروبية لاحظت خلال زياراتى فى الشهور الستة الأخيرة تزايد أعداد المصريين الذين هاجروا بالفعل، أو أولئك الذين جاءوا إلى أقاربهم أو معارفهم يستطلعون الأحوال، معظمهم مسلمون، الأقلية أقباط، من يحاولون البحث عن فرص للعمل أو الاستقرار بعيداً، مصريون أغلبهم من المسلمين، معظمهم كفاءات وخبرات نادرة وأوضاعهم المعيشية فى مصر جيدة، إن من يشرع فى الهجرة إلى الغرب يكون دائماً مهنياً من المتخصصين أو صاحب تجربة أو متفوقاً، كما أن مقدرته المالية يجب أن تمكنه على الأقل من الصمود فى المرحلة الأولى التى يبحث خلالها عن عمل، منذ سنوات كانت الهجرة من الشباب معظم الباحثين عن حياة أفضل كانوا فى مقتبل العمر، ما لاحظته مؤخراً تقدم مستويات الأعمار، كثيرون ممن التقيتهم تجاوزوا الخمسين، والبعض فوق الستين، يصحبون عائلاتهم معهم، يريدون الابتعاد بالأبناء، وأحياناً الأحفاد، ما من عائلة مقيمة إلا وتنتظر قادماً من مصر، ليس لدى أرقام، ولكن خبرتى المباشرة تؤكد تزايد معدلات الهجرة من ذوى الخبرات، استفسرت من البعض وكان الإجماع على سوء المناخ الذى لن يسمح بفرص متكافئة أو موضوعية نتيجة التوسع فى الأخونة؛ أى إسناد المهام فى جهاز الدولة إلى من ليس له خبرة أو تجربة كافية، المهم أن يكون مقرباً أو عضواً بالفعل من الجماعة، وكانت النقطة الدالة فى هذا الاتجاه اختيار هشام قنديل

الذى يعكس أداؤه ضحالة لم تعرفها الإدارة الحكومية فى المناصب العادية فما البال بمنصب رئيس الوزراء الذى يعنى فى مصر مكانة خاصة لتاريخه الطويل والذى حل فيه خلال العصور القديمة أنبياء، كان للفساد فى النظام السابق مجالات وحدود لكن لم يخرج عن السياق الذى تقتضيه تقاليد الدولة، كان المحافظ له مكانته، يليه نائبه، أما الآن فالنائب الإخوانى هو الأهم، بل إن بعض المحافظات -مثل الإسكندرية- لا نعرف فيها اسم المحافظ، بينما المساعد الإخوانى الذى يصول ويجول يتصدر الواجهة، افتقاد الكفاءات وإزاحتها وتدمير التقاليد التى تنظم عمل الدولة ودفع الموالين من ذوى الجهل والفقر فى التجربة والخبرة مع الخلو الذى كشفت عنه الجماعة من الكوادر وأهل الخبرة يدفع بأهل العلم والتجربة إلى النزوح، هذا ما بدأ يحدث بالفعل. غير أن موجات الهجرة المتوقعة مع استمرار النظام الحالى ستبدأ مراحلها المروعة مع بدء المجاعة التى أصبحت دانية، الرصيد النقدى ينفد بسرعة وبعد شهرين أو ثلاثة لن تجد الحكومة نقداً أجنبياً لشراء القمح، اختفاء رغيف الخبز سيكون الخط الأحمر بالنسبة لجموع المصريين، ولقد أصبح الوطن طارداً لأنجب أبنائه نتيجة للسياسات السائدة الآن وتلك التى سنعانى آثارها فى المستقبل القريب، كل ساعة يمضيها الإخوان فى الانفراد بإدارة البلاد تقربنا من الكارثة المحققة.

منتخب

الأربعاء ٠٦-٠٢-٢٠١٣ | ٠٧:٣٩PM

من العبارات التى تتردد كثيراً فى الإعلام الآن «.. أول رئيس مدنى منتخب من الشعب»، يقول ذلك المؤيدون، خاصة من أعضاء الجماعة التى خرج منها الرئيس وما زال مرتبطاً برؤيتها ومضمونها، لن أعود إلى الظروف المحيطة بعملية الانتخاب سواء كانت داخلية أو خارجية، فهذه سوف يتوقف أمامها التاريخ طويلاً فى المستقبل القريب والبعيد، إنما أطرح لنتأمل أداء الرئيس، أى رئيس منتخب فى إطار ظروفنا الخاصة، فى الديمقراطيات الغربية، يتم انتخابه على أساس برنامج واضح، محدد المعالم، يتعهد بالالتزام به وأيضاً تنفيذه، حتى إن القوم يعلمون ما سيجرى ويمكنهم تحديد اليوم الذى سيتم فيه التنفيذ، المؤسسات المكونة للدولة لا يمكن الاقتراب منها بالتغيير وتبديل الأسس التى قامت عليها، خاصة المتصلة بالأمن والاقتصاد والعلاقات الدولية، المسافة شاسعة بين الوضع هناك والوضع هنا، فلم نأخذ من الديمقراطية إلا الصندوق، وحتى الصندوق تحيطه شبهات، لكن يمكن للسيد الرئيس أن يبدل نظام الدولة من النقيض إلى النقيض، من الرأسمالية إلى الاشتراكية والعكس، ومن الليبرالية إلى الدولة الدينية، أما المؤسسات العريقة فيكفى تغيير الرؤوس وإحلال أهل الجماعة أو الحزب، هؤلاء تربطهم المصالح، المؤسسات الاقتصادية تتبدل من النقيض إلى النقيض، وبالتالى لا توجد استمرارية فى الإنتاج أو العمل، تتغير وجوه الأشخاص، يتبدل كل شىء، ما يحدث عندنا لا علاقة له بالقيم

الديمقراطية الحقيقية، حتى الدستور مجرد شكل، يتم استفتاء الشعب على عشرات المواد التى يحار فيها المتخصصون، على أى حال فلنحاول الاقتناع بالأمر، ونناقش مع أن طرح الأفكار لا فائدة فيه، لن ينتج عنه إلا زيادة الرصيد عند المراقبين المدققين من أهل الحكم، وبعضهم من أهل الخطر المهيمن نفسه، لا بأس فقد كتب علينا التعبير عن خواطرنا ومواقفنا أياً كانت النتيجة، إذن فلأتظاهر بتصديق أن ما يتم عملية ديمقراطية كاملة. من هنا سأطرح تصورى، الرئيس المنتخب، خاصة إذا كان مدنياً وفى مفتتح التجربة، هل يظل مستمراً لمدة كاملة مهما كانت نتيجة أدائه؟ بمعنى، ماذا يحدث لو ظهر الفشل فى كافة المجالات بعد عدة شهور، بعد ثلاثة أو أربعة شهور فقط؟ هل يتم المدة مع النتائج الكارثية التى يمكن أن تلوح بوادرها، ولا توجد وسيلة واضحة المعالم للتغيير إلا الانتظار لسنوات لا يعلم إلا الله عقباها، خاصة مع اللجوء إلى العنف والدم الذى لا يجلب إلا الدم، تفادياً لذلك أقترح عند مراجعة الدستور، سواء قريباً أو فى المستقبل، بإضافة مادة تقضى باعتبار الشهور الستة الأولى بمثابة فترة انتقالية -ولا أقول اختبارية حفظاً للمقام الرئاسى- يجوز فى نهايتها إعادة النظر فى الرئيس المنتخب إذا ما أثبت أنه لم ينفذ برنامجه الرئاسى ولم يحقق ما وعد به، أو إذا أظهر بعض التجاوز فى ممارساته، لا أقول ذلك بالنسبة لمصر فقط، إنما بالنسبة لكافة الدول التى لم تأخذ من الديمقراطية إلا الشكل فقط، وربما الاسم لا غير، بمثل هذا المقترح وقدرة الشعب على التنبيه ربما تعرف الأجيال القادمة الديمقراطية الحقيقية.

إهانة

الخميس ٣١-٠١-٢٠١٣ | ٠٧:٢٤AM

وجه الدكتور محمد مرسى إهانات تاريخية إلى الشعب المصرى فى كلمته الليلية التى جاءت بعد صمت، والتى لم يختلف مضمونها عما سمعته من مطالب أعضاء مجلس الشورى، فى الجلسة التى عقدت فى اليوم نفسه، أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، مما يعمق الإحساس بأن الرئيس المنتخب مجرد واجهة لمكتب الإرشاد، وليس رئيساً للمصريين، أما عن التهديد والتلويح بالإصبع، فقد نال من التعليقات ما يكفى، سأتوقف أمام المغزى الأعمق لما اتخذ من قرارات. إعلان الطوارئ بالنسبة لمدن القناة الثلاث إهانة للشعب المصرى كله، ولمدن القناة خاصة، هذه المواقع الثلاثة ذات الخصوصية فى الذاكرة المصرية الوطنية، ولو أن الدكتور مرسى قدر له أن يقرأ فقط عن معاناة أبناء المدن الثلاث لما فكر لحظة واحدة فى فرض الطوارئ، والتعامل الأمنى المفرط فى القوة مع أهالى بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وقد لخص الشاعر الكبير الأبنودى الموقف فى مربعاته الشعرية التى سأتوقف أمامها طويلاً لكل ما تعنيه عندما قال صباح الثلاثاء أمس الأول فى جريدة «التحرير»: نجحت فى سباق المسابقات ضربت فيه الرقم القياسى اللى قتلته فى بلد البطولات أكتر من العدوان الثلاثى! نعم، فى يوم واحد فقدت بورسعيد أربعة وأربعين شهيداً، انطلقت النيران من ملثمين غامضين، لا يدرى أحد إلى أى جهة ينتمون، هذا عدد فاق خسارة المدينة الباسلة فى أى يوم من حرب الاستنزاف الضروس وحرب العدوان الثلاثى، أما مدينة السويس الباسلة فقد شكلت مع المدينتين الأخريين الظهير الأسمى للجيش

خلال حربى الاستنزاف وأكتوبر، وما تحفل به ذاكرتى كثير، المشكلة أن جماعة الإخوان لا يوجد فى معتقداتها مفهوم الوطن، ولذلك لا يتوقف من ينتمى إليها لما يعنيه الوطن، والذاكرة الوطنية، لذلك يتم ارتكاب أخطاء كبرى مثل التعامل مع مدن القناة بالمنطق الأمنى فقط، والتهديد، وتلويح الإصبع العاجزة والتى لا تاريخ يساندها، وقد رد أهالى المدن الثلاث بما يليق عندما وصلوا الليل والنهار وسخروا من فرض حالة الطوارئ، لو أن الدكتور مرسى وجماعته يعرفون تاريخ ما جرى حول القناة، لخاطبوا القوم هناك من واقع تاريخهم، ولوجدوا فيهم خير معين لتأمين قناة السويس والمنشآت التى قد تتعرض لتخريب متعمد. الإهانة الثانية؛ محاولة وضع الجيش المصرى فى إطار مهام تتنافى مع طبيعته، ولا تلتقى مع تاريخه ودوره، إن إجراء الضبطية القضائية يحول الجيش إلى قوة أمن داخلية، وبالتالى يضعه فى مواجهة مستمرة مع الشعب، وإذا تم ذلك فإن مدن القناة التى شهدت أروع مشاهد التضامن بين الشعب والجيش سوف ينقلب فيها الوضع، ولنا أن نتخيل مشهداً يقوم فيه «تشكيل من الصاعقة أو المظلات أو الفرقة الثانية أو من الفرقة ١٩، وهو يهاجم بيتاً فى حى العرب أو الثلاثين أو الأربعين لضبط مطلوب من المواطنين، لم يوجد جيش أحمس وأحمد عرابى وعبدالناصر لمثل هذه المهام إلا إذا كان هناك مخطط مقصود لضرب الجيش والشعب معاً، هذا القرار يتضمن إهانة للطرفين والمطلوب تصحيح الوضع فوراً، إسناد ما للداخلية للداخلية بدلاً من تخريبها وإسقاطها، وما للجيش للجيش بدلاً من دفعه إلى ما لم يعدّ له، وهذا يعنى الكارثة.

خصوصية الحركة

الخميس ٢٤-٠١-٢٠١٣ | ٠٨:٠٦AM

منذ عامين، فى مثل هذا اليوم، هل كان أى مراقب من أى جهة، أى إنسان يعيش فى بر مصر، هل كان بوسعه تخيل ما سيحدث فى مصر بعد أربع وعشرين ساعة؟ كل شىء بدا هادئاً، لا ينبئ بشىء، نعم، رصد المهتمون دعوات كثيفة على شبكة التواصل «فيس بوك» تدعو إلى التظاهر ضد الشرطة احتجاجاً على اغتيال خالد سعيد، صحيح أن المناخ السياسى كان قاتماً، وأن أصوات الاحتجاج بدأت ترتفع، وكانت البداية تلك الصيحة العبقرية فى كلمة واحدة «كفاية» والتى يُنسب اقتراحها وإبداعها إلى المرحوم محمد السيد سعيد المفكر والمناضل الذى رحل عن عالمنا نتيجة مرض السرطان، غير أن مظاهر اليأس كانت تلوح أيضاً، فمظاهرات «كفاية» تقلصت إلى عدد محدود لا يتجاوز العشرات، وبدا الوضع مستقراً رغم كل شىء بينما الأحوال تتدهور على جميع المستويات نتيجة الركود والفساد واليأس من التغيير، وكلها أسباب ما تزال قائمة حتى الآن وإن اتخذت أشكالاً مختلفة. فى عام ١٩٧٧، أصدر الرئيس السادات قراراً برفع الأسعار الخاصة بسلع معظمها يتصل باحتياجات الشعب المباشرة، لم يحدث شىء فى البداية، صباح اليوم التالى مباشرة ركبت مترو حلوان قاصداً دار أخبار اليوم، لاحظت أن الركاب يشاركون فى مناقشات تتسم بالاحتجاج والجرأة، محورها قرارات الرئيس، لكن لم تكن هناك مظاهرات أو مشاهد احتجاجية، فى الثانية عشرة ظهراً بدأت الأخبار ترد من جهات شتى

بخروج مظاهرات عنيفة، حوالى الثالثة ظهراً كانت المظاهرات تحتشد أمام مبنى أخبار اليوم والأهرام، تزايد الأمر حتى اضطر السادات إلى الاختفاء من العاصمة واتخذ القرار الصعب بنزول الجيش إلى الشارع لضبط الأحوال، وقوبل الجيش بحفاوة كما جرى ذلك فى عام ١٩٨٦، وفى يناير، قبل تفرق جماهير الثورة من الميدان، وبدأ بعض الفرق الشبابية المراهقة فى الاصطدام بالجيش وتوجيه الإهانات إليه واعتباره عدواً والاتجاه بالمظاهرات إلى الوجهة الخاطئة، إلى وزارة الدفاع فى كوبرى القبة، وهذا مما يحتاج إلى مصارحة وأيضاً تصحيح، هذا الشقاق بين الجيش وبعض فئات الشباب من الثوار ما لم يلتئم فسوف تزداد أوضاع الوطن سوءاً، وسوف أفصّل ذلك فى تجليات تالية. أعود إلى خصوصية الحركة المصرية، فى الثالثة والنصف اتصلت هاتفياً من مكتبى بالأخبار بصديق عزيز كان يقف أمام دار القضاء العالى أحد الأماكن التى حددتها الدعوات إلى المظاهرات، سألته عن الأحوال، قال إن الأمور تبدو عادية، أعداد محدودة من الشخصيات التى اعتادت التظاهر، غير أنه عاد ليتصل بى بعد حوالى ربع ساعة ليقول إن هناك ظاهرة لم يعرفها من قبل، أعداد كبيرة لم يعرفها من قبل تجىء من كل صوب، عندئذ تذكرت كل ما قرأته عن الشخصية المصرية، عن ميراثها الدفين، عن خصوصية الحركة فى مواجهة الظلم والعسف والإهمال، يستكين المصرى لفترات طويلة حتى يظن حاكمه أو المراقب من قريب أو بعيد أن الأحوال دائمة، وما من رد فعل يهدد الوضع القائم، غير أن هذا الشعب الذى يبدو هادئاً، متحضراً، المشغول ببناء الحياة منذ فجر التاريخ يتحمل كثيراً، وينوء بالأثقال طويلاً إلى حين، وقد

أكسبته المعاناة عبر تاريخه خبرة تلقائية وصلابة دفينة، عوامل شتى تتحرك فى لحظة معينة، وعندئذ يبتكر أشكالاً غير معهودة فى المقاومة، ويصمد ويغير. هذه الجموع التى ستخرج غداً فى الذكرى الثانية لا تعرف الخوف القديم، نساء مصر فى المقدمة قبل الرجال، طاقة روحية ومادية قادرة، فقط ما تحتاج إليه قيادة على نفس المستوى، وإطار ينظم الوجهة، عندئذ تخف الأخطاء ويلوح مستقبل أفضل.

كانتو

الخميس ١٧-٠١-٢٠١٣ | ٠٨:١٥AM

فى الطريق إلى مقر دار نشر «العين» بوسط المدينة بدا لى مشهد انهيار الدولة المخطط متجسداً، كنت حريصاً على حضور مناقشة كتاب جديد للصديق المفكر الدكتور نبيل عبدالفتاح أحد أنبل وأنقى المثقفين المصريين وأكثرهم بحثاً ودراسة والأجرأ على خوض المحرمات الفكرية التى يمكن أن تكون مصادرها متعددة. المجتمع والتقاليد والأحداث الكبرى ومنها الثورة نفسها وما يحيط بها يتجسد هذا فى كتابه الجديد «النخبة والثورة»، الذى يحتاج إلى مناقشة طويلة بدأت بالفعل بهذه الندوة رفيعة المستوى التى شارك فيها الأساتذة: السيد ياسين والدكتور على الدين هلال والدكتور صلاح فضل والمفكر سعد هجرس والدكتورة فاطمة بدوى واللواء طيار محمد زكى عكاشة. وسوف أتوقف أمام هذا الكتاب طويلاً الذى يطرح أسئلة حرجة مسكوتاً عنها نابعة من الواقع السائد خلال العامين الأخيرين تتعلق بالثورة والفترة الانتقالية وصعود جماعة الإخوان إلى الحكم والتمكين. الندوة فى مبنى من أعرق وأجمل مبانى وسط المدينة يقع بالممر الشهير «بهلر»، الذى صمم على الطراز السويسرى وكان من مراكز الجمال المعمارى والفنى فى المدينة، أقول كان، فى الطابق الثالث عقدت الندوة وللأسف وصلنا متأخرين إلا أننا لحقنا جانباً من المناقشات الجادة، كنت بصحبة الصديق يوسف القعيد وكان الحضور متنوعاً بشدة ويعكس التقدير الذى يحمله كثيرون لنبيل عبدالفتاح وجهاده الفكرى، كانت

المناقشات جادة صريحة ولكن ما مررنا به وسط المدينة والذى يمكن رؤية ملامحه من النافذة يجسد ذلك التناقض الحاد بين النخبة المشغولة فكرياً وسياسياً بمصير الوطن وما يجرى فيه وبين ما يجرى على الأرض، احتجنا إلى حوالى ساعة لنقطع المسافة من بداية شارع طلعت حرب حتى الممر لم أرَ وسط المدينة محتلاً هكذا من قبل. على الجانبين الحوامل الحديدية للملابس المستعملة التى انتشرت بكثافة فى شوارع المدينة وحول وزارة الخارجية والتليفزيون واستمر الزحف حتى استولى تماماً على وسط المدينة إلى درجة أن نهر الطريق لم يتبق منه إلا ما يسمح لعربة واحدة بالمرور بحذر لانتشار مجموعات من الشباب أعمارهم متقاربة بعضهم يقف بين الملابس وآخرون يرتبون ما علق منها. من الواضح أن وراءهم جهة قوية أو شخصاً قوياً أو جماعة أقوى، انتشارهم بهذه الكثافة تنظيم فى حد ذاته، وتحد صارخ للدولة ممثلة فى وزارة الداخلية، خاصة بعد إعلان الوزير الجديد أن هدفه إخلاء الشوارع من العشوائية والباعة الجائلين، الوجود القوى لباعة الملابس المستعملة سابق على مجئ الوزير لكننا لم نعرفه بهذه الكثافة وتلك الجرأة كما بدا فى وسط العاصمة التاريخى.. وفى أحد أهم شوارعها وميادينها فى مواجهة كل القوانين والنظم وفى غياب تام للشرطة. فى الأزمنة السابقة كان بيع هذه الملابس محصوراً فى سوق «الكانتو» بالعتبة وفى وكالة البلح، الآن تتحول قاهرة المعز إلى مخزن ومعرض مفتوح للملابس المستعملة، إنه حضور له أبعاد أخرى. لا أريد المبالغة ولكنه تجسيد لانهيار الدولة المصرية القديمة المتماسكة التى يضعها الإخوان هدفاً رئيسياً لهم بكل مكوناتها بلا استثناء؛

الداخلية أولاً، القضاء، الإعلام، الخارجية، لا يستثنى من ذلك الجيش، فى المواجهة تصعد العشوائية والفوضى الهدامة والخلاقة، احتلال الملابس القديمة لوسط المدينة الاستراتيجى يمكن أن يكون نواة لانطلاق اضطرابات واسعة فى حالة نشوء أى وضع يهدد الجماعة ومشروع الخلافة، ما رأيناه غياب كامل لأى قانون أو حتى عرف. هذا ما لم تعرفه مصر فى أبشع أيام الفوضى خلال الاحتلال العثمانى. حتى فى هذا الزمن كانت الدولة قائمة وكان المستعمر يفرض النظام بالإنكشارية حتى الإنكشارية العثمانية غائبة، هناك انكشارية حماس التى تحمى الزعماء الجدد وتهدد المخالفين وتؤدبهم، ظواهر عديدة فى حاجة إلى فحص وانتباه تجسد كلها هدم الدولة الذى يتم بهمة لم تعرفها مصر من قبل فى مواجهة زحف الكانتو.

المصريون يقاومون

الأربعاء ٠٩-٠١-٢٠١٣ | ٨:٣٧PM.

رغم الكارثة التاريخية التى لحقت مصر والمصريين بصعود الإخوان والتيارات المتشددة، فعلينا ألا نستكين إلى اليأس أو التعامل مع الواقع القائم على أنه أمر مفروغ منه وأنه قدر لا فكاك منه، صحيح أننا نرى هدم الدولة يومياً، تقويض القضاء والإعلام والداخلية، والتأهب للانقضاض على الأزهر والمؤسسات الراسخة الأولى، إلا أننا يجب رصد حركة الواقع ومظاهر المقاومة الشعبية أياً كانت وأياً كان حجمها، وهنا يجب النظر أيضاً إلى الماضى، إلى المراحل التى استعمرت فيها مصر من أجانب قساة استباحوا مضمونها وتراثها الروحى وعطلوا مسيرتها، وتقدمها واستباحوا حرماتها ومقدساتها، لكن رغم فداحة الثمن سرعان ما انطوت هذه الفترات وأصبحت نسياً منسياً، أعرف أن حكم الإخوان لن يتغير بالانتخابات أو أى وسيلة ديمقراطية أخرى، لقد جاءوا ليبقوا وليتمكنوا ويغيروا هوية مصر بما فيها الإسلام، الذى نعتنقه منذ ما يقرب من خمسة عشر قرناً، الإسلام الذى يدعو إلى الرحمة والتسامح والعمل من أجل الدنيا والآخرة، والحديث فى هذا يطول، ولعل الشعور العام عند المصريين الآن أنهم فى مواجهة دعاوى غريبة على الإسلام، الذى يعتنقونه ويذودون عنه، ولذلك بدأت مقاومة خاصة بين أبناء الطبقات الوسطى التى تحظى بقدر من التعليم، ولأول مرة تعرف مصر ظاهرة الاعتراض على خطيب الجمعة، تكرر ذلك فى أكثر من مسجد، أحدها كان يصلى فيه الدكتور محمد مرسى نفسه، وفى

الإسكندرية كاد الخلاف ينتهى بحرب حقيقية عندما حاول الشيخ المحلاوى تحويل خطبة الجمعة إلى دعاية سياسية، بل إننى أعرف عدداً من الشباب المتدينين الواعين يتجهون الآن إلى صلاة الجمعة فى الخلاء بعد أن أصبحت المنابر فى المساجد تردد الدعاية الممكنة للجماعة، أما الظاهرة الأبرز فتلك الدعوة التى انطلقت بعدم تهنئة الأقباط بعيد ميلاد السيد المسيح، دعوة غريبة، مريبة، لم أقرأ مثلها فى أى مرحلة من تاريخنا خاصة، أو تاريخ الإسلام عامة، بسبب بسيط واضح، جلى، أنها مناقضة لما جاء فى القرآن الكريم، وقد تصدى كثيرون بالحجج الدامغة، ولكن فلننظر إلى ردة فعل المصريين، لا أظن أن سنة قد عرفت هذا الحجم من التهانى الصادرة عن جموع المسلمين المؤمنين بالإسلام الحقيقى وليس الإسلام «البرهامى»، الذى يجيز الكذب والخداع -راجعوا حديثه الذى تم تسجيله بالصوت والصورة عن عملية الخداع فى إقرار الدستور- لقد شهدت جميع الكنائس جموعاً من المسلمين على خلاف كل سنة، حتى الكنائس فى المهجر، تم ذلك بدون دعوة حزبية أو دعوة من تنظيم ما، إنما بدافع فطرى من المصريين الذين يدركون بالعلم والفطنة أن دينهم الحقيقى مهدد، بالإضافة إلى التصرفات التى تصدر حالياً عن الجماعة وحلفائها فى أكبر بلد مسلم، وأكثره تأثيراً من خلال الأزهر المستهدف الآن بدءاً من شيخه الجليل حتى مضامين ما يدرّس فيه ومسيرته الناصعة لخدمة الإسلام والمسلمين، وأن إقبال المصريين على تهنئة الإخوة الأقباط، يمكن اعتباره جزءاً من المقاومة الثقافية التى بدأها المصريون المؤمنون ضد هذه المبادئ الغريبة التى تسىء للإسلام والمسلمين، المؤسسات التى لم تدركها

الجماعة بعد بادرت إلى اتخاذ موقف صحيح، وكانت البداية من الجيش، حيث أوفد الفريق أول عبدالفتاح السيسى إلى الكاتدرائية وفداً رفيع المستوى، برئاسة اللواء محمد العصار، قبل حلول عيد الميلاد بأيام، ومساء العيد وجه القائد العام التهنئة باسمه، وهذا موقف وطنى مسئول، إن ممارسة الكذب المنظم، واستمرار هدم الدولة التى تنظم حياة المصريين، ومحاولة بعض التيارات القادمة من كهوف التاريخ فرض مفاهيم ضارة بالإسلام نفسه، لن تمر هكذا، ثمة مقاومة فى الواقع أكبر من القيادات السياسية والكائنات القائمة، أيضاً هناك أصوات معدودة لشعراء وروائيين وصحفيين تستحق التقدير، فعلى الرغم من عدم وجود أطر تجمعهم، إلا أن كلاً منهم يعبر بقوة وذاتية رغم المخاطر الدموية الماثلة.

تهنئة الأقباط واجب وطنى

الخميس ٠٣-٠١-٢٠١٣ | ٠٨:١٣AM

فى معظم سعيه للسلام على الناس أو المجاملة فى الأفراح والأحزان كان يحرص على أن يصحبنى معه فى طرقات جهينة بالصعيد الأقصى أو فى دروب القاهرة القديمة، أمضى عمره يجامل الخلق ويسافر إلى معارفه فى قرى ومحافظات مصر فى جهينة كان إذ يرى أحد رجال الدين الأقباط قادماً يقول لى: بوس إيد أبونا. القمص أو القسيس رجال دين تماماً مثل المشايخ لهم إجلالهم واحترامهم.. ما زلت حتى الآن أذكر قباب الدير فى أبوتيج وإلى جوارها الباسقات من النخيل، تلك الشجرة التى يكتسب وجودها فى مصر ظلا ومعنى وهوى غامضا يفيض بالأسرار، كان حريصاً على أن يود مطران أبوتيج، كيف تعرف عليه؟ وعندما أصبحت الرحلة مرهقة ومشاغل العيش ثقيلة لم يتوقف عن مراسلته. كان الوالد رجلاً بسيطاً غير أنه يحمل ثقافة مصر العريقة القديمة والضاربة فى الزمن والروح. شأنه مثل جميع المصريين الذين اختص تكوينهم بقبول المغاير والمختلف جنساً وثقافة حتى يتكيف مع الحياة المعتادة للكافة، أما الأقباط فلم أتلقَّ فى طفولتى المبكرة «الأربعينات والخمسينات» أى إشارة تدفع إلى التفريق، أو أى سلوك قد يولد منه التفريق، كان المجتمع المصرى له خصائص لا تتوافر فى البلدان العربية أو الإسلامية تخلو القاهرة على سبيل المثال من أماكن أو مناطق لها صفة الجيتو أى تقتصر على سكنى أتباع دين واحد. ودائماً أضرب مثالاً على المعابد اليهودية فى القاهرة،

ستة عشر تنتشر من الشمال إلى الجنوب وفى جميع البلاد التى زرتها فى أوروبا أو البلاد العربية نجد الجيتو سواء كان لليهود أو للمختلفين مع المذهب السائد من أتباع الدين الواحد وفى الجيش المصرى عرفت تقاليد الوطنية فى أجلى معانيها. لم يكن اللواء فؤاد عزيز غالى قائد الفرقة الثامنة عشرة التى حررت القنطرة شرق بمفرده، كان هناك أقباط فى كل التشكيلات، وكان من بينهم صداقات عميقة ظلت حتى اللحظات الأخيرة من عمر أصحابها، من يعرف مثلاً أن رئيس أركان حرب الدفاع الجوى كان مصرياً قبطياً؟ أعنى الفريق جورج ماضى، تعرفت عليه وهو برتبة مقدم خلال حرب الاستنزاف، وتوفى برتبة الفريق منذ أعوام قريبة. فى صميم الوطنية المصرية انصهرت كل عوامل التمييز. ولكن مع صعود التيار الذى يستغل الدين للوصول إلى مآرب سياسية ودنيوية ظهرت عوامل الفرقة والانقسام نتجت عن ذلك مشاكل كان يتم احتواء آثارها بسرعة ولكن فى العقود الثلاثة الأخيرة تطورت الأمور، أحداث عنف تفجيرات لدور العبادة القبطية، موجات تطرف متعمدة مخطط لها تستدعى تطرفاً مقابلاً إلى أن وصلنا إلى لحظة تعلو فيها أصوات من تلك التيارات خاصة من يوصفون بالسلفيين يحرضون على عدم تقديم التهنئة، مجرد التهنئة إلى الأشقاء الأقباط، بينما تمضى سياسات الجماعة إلى تعميق الفرقة والانقسام. الذى يمكن أن يمضى فى مساره الطبيعى إلى تمزيق الوطن وتقسيمه، ما أبعد المسافة بين الأيام النقية لانتفاضة المصريين واعتصامهم فى التحرير، حيث تجلت الوحدة الوطنية فى أسمى معانيها قبل اختطاف الإخوان للثورة بأساليب شتى، منها العنف المنظم وبين تلك النداءات المحرضة ضد الأقباط

وتجاهل رئيس الدولة الحالى لتنصيب البابا وهذا حدث نادر لا يتكرر إلا على مسافات زمنية متباعدة! إن تعميق ثقافة الانقسام يجب أن يواجه بسلوك مضاد يتسق مع تكوين الشعب المصرى الحقيقى وليس دعوات هؤلاء الدخلاء. على الأحزاب الوطنية أن تحشد أعضاءها فى وفود كبرى لتقديم التهنئة إلى الإخوة الأقباط فى الكنائس والأديرة والأماكن العامة. وعلى المبدعين الوطنيين من شعراء وموسيقيين وأدباء وممثلين -أحيى هنا الفنان العظيم عادل إمام الذى يعتبر حالة تستحق التوقف والتأمل- ابتكار أشكال من التهنئة بذلك السلوك المضاد لثقافة التعصب والفرقة تحمى وحدة مصر والوطن. وأخيراً التحية واجبة للفريق أول السيسى الذى قدم التهنئة مع مطلع العام إلى المسلمين والأقباط وسائر المسيحيين، وبالتأكيد يعبر الجيش المصرى بوعى قيادته الآن عن الوحدة الوطنية أدق مما يعبر النظام الحالى الذى يبث الفرقة ويعمقها، لتكن التهنئة من المصريين إلى المصريين مسموعة هذا العام، معبرة عن جوهر مصر وتكوينها.

هيكل والعريان

الخميس ٢٧-١٢-٢٠١٢ | ٠٨:٠٣AM

من يتابع حوارات الأستاذ محمد حسنين هيكل، سواء آخرها مع الإعلامية لميس الحديدى، أو ما سبقها، سيجد، إلى جانب الإحاطة بدقائق العصر والاطلاع على خفايا الأمور، موضوعية فى الطرح، وثقافة عميقة فى العرض، وتجنبا تاما للسفاسف، خاصة التعريض بالأشخاص، أو البعد عن مقتضيات اللياقة على كل المستويات، بدءاً من رئيس الدولة إلى زملائه وتلاميذه، وأشهد أننى خلال سنوات طويلة من المعرفة واقتراب الصلة وتواصل الحوار، لم أسمع منه خوضاً فى عرض، أو نيلاً من شخص عبر مداخل غير موضوعية، مع أدب جم حتى عند الحديث عن أشد خصومه تشهيراً به، ومن الطبيعى أن ما يقوله الأستاذ يجب أن يكون موضعاً لنقاش جاد من السلطة أو المعارضة؛ فلديه من المعلومات والإحاطة ما ينأى بحديثه عن الاسترسال الخالى من المعنى، من هنا كانت المفاجأة بالسباب الذى وجهه الدكتور عصام العريان إلى الأستاذ فى تصريحاته التى تجىء فى سياق المعلق العابر الذى اختاره لنفسه، مما يذكرنى بـــ... لا، لا أريد الانزلاق إلى نفس المنحدر، لا أدرى هل يتطوع بتصريحاته أم أنه ينفذ تكليفاً من الجماعة، هل لديه الرغبة فى إثبات الحضور؟ يعطينى الانطباع أنه ارتضى لنفسه مكانة تشبه «تباع» الميكروباص، لا يقود لكنه يجمع الأجرة ويعلق على المسار، أتجنب الخوض فى التشبيهات ولا أريد قط الانزلاق إلى السباب الذى أصبح ظاهرة فى النقاش، بين من يفترض أنهم النخبة.. السباب وسيلة العاجز، وفى الأغلب يمتد إلى صاحبه إذا كان مجحفاً أو متجاوزاً، أغرب ما سمعته من

العريان معايرة الأستاذ بسنه، هل من المعقول أن يصدر ذلك عن إنسان عاقل ومسلم فى الوقت نفسه؟ هل أذنب الأستاذ فى بلوغه التسعين؟ هل أتى مخالفة للنواميس الطبيعية لأنه احتفظ بلياقته الذهنية والفكرية؟! هل أذنب أم أن هذا ما قدره الله له؟ هل لدى الدكتور العريان وثيقة من أى جهة تثبت أنه سيتجاوز الأستاذ عمراً؟! هل ضمن الخطوة التالية؟ ألا يدرى أن الإنسان لا يدرى بأى أرض يموت، ولا ماذا سيكسب غداً؟ أليس من المحتمل أن يمشى الأستاذ فى جنازته؟ من يدرى ماذا ستأتى به الأقدار؟ المسلم الحقيقى لا يعاير أى إنسان بالعمر.. ما تعلمناه احترام التجربة الطويلة، خاصة إذا كانت مثمرة، والانحناء للأكبر سناً، خاصة إذا كان معلماً ونبراساً، لكن يبدو أن القيادى فى الجماعة له رؤية أخرى أياً ما كانت فلا يمكن فى أفضل الأحوال إلا اعتبارها سقطة أخلاقية وإنسانية، من الأفضل أن يحاوره فيما قاله، أن يجادله بالتى هى أحسن، لقد صمت الأستاذ فترة ليست بالقليلة والتقى كل من يشغل موقعاً مؤثراً قبل أن يخرج بهذه الرؤية المتكاملة للوضع التى يشعل فيها المصابيح الحمراء، لقد جلس إلى الدكتور مرسى وتحدث إليه ربما أكثر مما أتيح للدكتور العريان، والتقى الفريق عبدالفتاح السيسى مرات، منها مرة تمت فى وزارة الدفاع، وجرى خلالها احتفال بعيد ميلاده التسعين، فهل أخطأ القائد العام لأنه احتفل بإنسان ذى قيمة ومكانة أمهله الله سبحانه وتعالى ومد فى أجله حتى بلوغه التسعين؟ إنه السباب الأعجب والأغرب والجدير بالتأمل فى التكوين الذى أفرز مثل هذا المستوى الغريب، الذى لا يمكن أن يصدر عن إنسان عاقل، فما البال بمن يوصف أنه قيادى فى جماعة تتخذ من الإسلام غطاء؟

مصادر ومراجع

- الترجمة الإسبانية "متون الأهرام" للروائي جمال الغيطاني، وقدم لها الكاتب الإسباني خوان غويتيسولو، وصدرت عام عن دار نشر "ليبرتارياس" في مدريد.
- مكي، الطاهر أحمد، "القصة القصيرة، دراسات ومختارات"، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧، صفحة ٣٧ والصفحات التالية.
- مارتينيث مونتابيث، بدرو، " مدخل إلى الأدب العربي الحديث" (الطبعة الثانية)، دار نشر كنتأرابيا، مدريد، ١٩٨٥، ص. ٤٠.
- أصدر الغيطاني "قاهريات مملوكية"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦. وفيه يتجول الكاتب في جزء مهم من الأحياء التاريخية في العاصمة المصرية ليكشف بأسلوبه الأدبي الخاص أسرارها، من خلال كتب التاريخ والآثار الإسلامية.
- تراجع الدراسة القيمة التي وضعها هذا الناقد الشاب الأستاذ في جامعة القاهرة "الرواية الجديدة في مصر. دراسة في التشكل والأيديولوجيا"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص. ٦٣.
- عنوان رواية "متون الأهرام" مستلهم من "نصوص الأهرامات" التي خلفها قدماء المصريين على جدران القبور داخل أهرامات بعض ملوك الأسرتين الخامسة والرابعة.

فهرس

مقدمة ٥

من هو جمال الغيطانى ٧

جمال الغيطانى وصحافة الحرب ٢٠

كتب الرواية التاريخية واستكشف القاهرة الشعبية ٢٩

مقاهى جمال الغيطانى ٣٧

الغيطانى وجدلية المجرد والمحسوس فى متون الأهرام ٤٥

حوار فى الأدب والصحافة والثقافة ٦٧

الغيطانى وعبد الناصر ٧٩

الغيطانى روائى عارض كل رؤساء مصر ٨٩

الغيطانى وأوضاع مصر فى عصر الإخوان ٩٩

مقالات متنوعة للغيطانى ١١١

مذبحة الصحفيية الصامتة ١١٢

ميليشيات موازية ١١٥

زول وطلوع ١١٨

حول الكاتدرائية ١٢٠

اوسترايكا	١٢٣
منع	١٢٥
كتابة بالقوة	١٢٧
توكيلات الأمة	١٣٠
سكة سوريا	١٣٢
الجيش الضامن	١٣٥
نزوح	١٣٨
منتخب	١٤٠
إهانة	١٤٢
خصوصية الحركة	١٤٤
كانتو	١٤٧
المصريون يقاومون	١٥٠
تهنئة الأقباط واجب وطنى	١٥٢
هيكل والعربان	١٥٦
مصادر ومراجع	١٥٨
فهرس	١٥٩